الجندي الأخير في جيش سقنن رع

الطبعة الأولى
المجموعة القصصية : الجندي الأخير في جيش سقنن رع
المؤلف : سمير لوبه
رقم الإيداع :
الترقيم الدولي :
دار النشر :

© جميع الحقوق محفوظة لدى المؤلف ودار النشر ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تقليده، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من المؤلف .
إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر. والمؤلف هو المسؤول عن المحتوى.

الجندي الأخير في جيش سقنن رع

بقلم

سمير لوبه

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء :

إلى الذين

فرضت عليهم تحديات لم يختاروها

فقرروا العيش ولم تحالفهم الحياة بعد .

مقدمة :

القضية ليست ماذا تكتب ولكن كيف تكتب

الروائي إبراهيم عبد المجيد

1- صلاة العيد

في ليلة العيد . بينما الأم مشغولة بترتيب البيت . يحتضن ملابس العيد ؛ يشمّ رائحتها . لا يحيد بعينيه عن الحذاء الجديدِ . يأملُ في العيديةِ الكبيرةِ ؛ ليشتري الحلوى ، واللعبَ الجديدةَ . يتعجلُ الصباحَ أن يأتيَ سريعًا . تطربُ أذنيه أم كلثوم بأغنيتِها (يا ليلة العيد أنستينا) . يغطُ في نومٍ عميقٍ . يوقظُه صوتُ أمِه الحاني ؛ ليذهبَ مع أبيه لصلاةِ العيدِ .

طوفانٌ من المصلين في ساحةِ الجامعِ الكبيرِ تعلو حناجرُهم بالتكبيراتِ . يمسكُ بيدِ والدِه . فرحتُه غامرةٌ ؛ فاليوم سوفَ يصحبُه أبوه ليركبَ الترامَ ، ويذهبَ لحديقةِ الحيوانِ . يتوقُ لمشاهدةِ القردةِ ، وركوبِ الفيلِ ، واللهوِ بالمسدسِ البلاستيكي .

ما أن انتهت الصلاةُ حتى انصهرَ المصلون يتبادلون التهاني ، والتبريكاتِ بالعيدِ ؛ يبحثُ عن أبيه فلربَّما يهنئ أصدقاءه ، وجيرانَه بالعيدِ .

يقفُ على الرصيفِ ريثَما يأتي أبوه ليمسكَ بيدِه ، ويعبرُ به الطريقَ ؛ فيعودَ للبيتِ ؛ ليأكلَ الكعكَ من صنعِ أمِه . ينصرفُ المصلون ، ولا أثرَ لأبيه .

يأتيه شابٌ يافعٌ يمسكُ بيدِه قائلاً :

- هات يدَك لأعبرَ بك الطريقَ يا حاج

2- على الهامش

في يوم صيفي قائظ يجلس حامد على الأريكة يقلب قنوات التليفزيون يبحث عن شيء من بهجة تسري عنه ، تصدر من حامد زفرات حارة لما يسمع ويشاهد على الفضائيات من دراما وأخبار يستمع إليها أكثر مما يتنفس ؛ ولكنه كمن يبحث عن إبرة في كومة قش في ليلة ظلماء حالكة السواد ؛ يغلق الشاشة ، ويتمدد في محاولة يائسة متكررة أن ينام ولكن كالعادة يجافيه النوم ، يفتح نافذة فوق رأسه علّها تأتيه بنسمة باردة تعينه على النوم في تلك الليلة شديدة الحرارة فما وجد سوى لسعات الناموس ؛ يحتضن مسند الأريكة بين فخذيه ، ويدس رأسه في حجر الوسادة ربما تغلب على صوت مروحة السقف التي يعلو صوتها على صوت شخير زوجته البدينة التي تستلقي على ظهرها

فاردة ذراعيها فتحتل معظم السرير ؛ فألجأته قلة الحيلة لاتخاذ الأريكة منامة له . يتقلب يمينا ويسارا ، يتصبب جبينه عرقا ، يغادر الأريكة ، يفتح باب الحجرة الذي يصدر نشيجا يفوق صرير مروحة السقف وشخير زوجته التي يبادلها حبا بحب رغم أحزانه ، يتوجه للبلكونة ؛ يدخن السيجارة الكليوباترا الأخيرة في علبته ينفث دخانها ينظر إليه ، تتعلق عيناه بالسماء ، يود أن يكون الآن في منطاد ؛ يعلو به ويبعد بعيدا في سماء صافية ونسيم عليل ؛ فيشاهد المروج الخضراء ؛ لا يشم غير عطر الورد ، ولا يسمع إلا تغريد البلابل . تغفو سيجارته بين شفتيه الغليظتين ؛ فيعود لأريكته في صمت ؛ فهو لا يريد أن يشعر من في البيت بالقلق الدائم الذي يعانيه والتفكير الذي يتصارع داخل رأسه كلما وضع رأسه على الوسادة لينام ، رغم أنه لم ينل القدر الكافي من التعليم لكنه رضع الحكمة من ثدي الحياة ، يطفو المرار إلى سقف حلقه ، ويجافيه النوم ؛ يتوجه للحمام ليضع بعض الماء على وجهه للتبريد قليلا فيلحظ وجود آثار الألوان لم تزل عالقة بتجاعيد وجهه البائس . يقلب حامد في رأسه أمرا ربما يغضب أسرته ولكنه صار حتميا الآن وما عاد في قوس الصبر منزع ؛ صار نومه ضربا من ضروب المستحيل ؛ يفقد شغفه للحياة ، ويشعر أنه مرغم عليها ؛ لا يشغله سوى النجاة من يومه ، وتوفير متطلبات أسرته ، فالآن لا تحرص الناس على الترفيه قدر حرصها على توفير قوت اليوم . تثقل تلك الهموم كاهل حامد فلا تفلح الألوان في إخفاء بؤسه الذي حفرته الأيام والليالي عبر السنين العجاف التي طحنته رحاها كما طحنت الناس ؛ فغابت ضحكته وما عاد قادرا على ممارسة مهنته الوحيدة التي لا يعرف سواها ، وها هو بعد أن لملم شتات نفسه قد فعلها . على الكرسي يتمدد أمام الطبيب النفسي ، وما أن انتهى من الحديث الذي طال معه حتى توجه الطبيب إلى مكتبه ؛ يمسك بورقة عليها إعلان عن سيرك يقام على أطراف المدينة . يتوسط الإعلان صورة لمهرج يبعث وجه الملون على الابتسام ؛ فيقدمها الطبيب إلى حامد قائلا :

- نصيحتي أن تذهب لذلك العرض ؛ ربما تتخلص من كآبتك ، وتعود إليك ضحكتك ؛ فتنام قرير العين هانيها .

اعتدل حامد في مقعده وهو يطأطئ رأسه متنهدا يقول (أنا المهرج نفسه) .

3- بِلية

تزيح الشمس ستار الليل تفتح نافذتها تصافح نهارا جديدا ، وفي ورشة الأسطى عبده الميكانيكي أمام إحدى المدارس الابتدائية ؛ وفي مشهد متكرر يمسك بلية بالمكنسة التي تعلو عصاها قامته يكنس ثم يحمل جردل الماء بذراع يفتقر للشحم واللحم ؛ يرش الماء براحته الصغيرة . في حين يجلس الأسطى على الكرسي يلفه دخان الشيشة التي لا تفارق فمه . يدخل التلاميذ المدرسة التي تحمل للصبي أجمل الذكريات ؛ يوم صحبه أبوه في يومه الأول للدراسة . تحت السيارات يتقلب بلية في تراب الأرض ؛ يناول المفاتيح للأسطى ؛ يعطيه أحد الزبائن بقشيشا ؛ يقبله يضعه في جيب سرواله الرث الملطخ بالشحم وتراب الأرض ، وبعد الظهر تخرج التلاميذ من المدرسة بينهم كرة تتعاورها أقدامهم يهللون فرحين ، وبجوار الرصيف يضع الصبية حقائبهم ؛ يلعبون الكرة التي يهواها بلية حد العشق ؛ يسرح بخياله معهم فيرى الكرة ملازمة لقدميه ، ومن قدمه في المرمى تستقر؛ فيعلو صوت الجماهير إعجابا بمهاراته الكروية . فإذا بكف الأسطى تصافح خده بعنف ليفيق فينتبه لعمله. يستحث الوقت أن يسرع ليلحق وقتا قليلا يلعب فيه الكرة مع أقرانه ، ويمر الوقت ، وتغلق الورشة ؛ يحتضن الكرة التي اشتراها له أبوه في الصيف الماضي قبل أن يموت بأيام . يجري عليهم فإذا بهم قد انصرفوا جميعا لحضن بيوتهم الدافئة ؛ تثور الرياح الباردة تعصف بالتراب عاليا . بينما يقف بلية وحيدا . وبكفين رقيقتين لطخهما الشحم والزيت يضع الكرة على الأرض ؛ يركلها للرصيف ترتد إليه فيكرر ذلك ؛ ربما وجد في الجماد رفيقا يلعب معه .

4- الجندي الأخير في جيش سقنن رع

ما أن عثر الجندي بوشار على حجر جديد حتى أسرع به ليفك شامبليون رموزه ، حجر آخر وُسِمَ بنقوشٍ لم تمحها نيران الزمن ، يعكف عليه شامبليون يسجل في أوراقه ما نطق به الحجر :

فزع الصغير " سِجاو " من نومه على صراخ أمه وهي تلتقفه وتحضنه وتجري به مسرعة في الحقول بين نساء وأطفال ، الكل يعدو بعيدا ، ورجال القرية يحملون العصي والفؤوس أمام عجلات تجرها الخيول مندفعة نحوهم تطيح بهم تحصدهم سيوف ورماح .. مع الغروب تعود النساء والأطفال يبكين رجالهم القتلى . يخيم الجوع عليهم بعد أن نهبت الهكسوس أقواتهم وحرقت منازلهم وهدمت معابدهم ، ومن قرية إلى أخرى يرحلون ، تتقدم النسوة المسيرة يحملن الصغار ، والعجائز خلفهن على عصيهم في وهنٍ يتكئون .. شب الصغير عن الطوق وصار يافعا ليعي حقيقة الهكسوس من

العجائز اللائي تقصصن عليهم كل ليلة القصة كاملة . ذات صباح يودع أمه " نيت " التي صنعت له البلطة بيديها ليثأر لمقتل أبيه . وعبر النيل يصل " سِجاو " إلى طيبة ليجد الرجال وقد اصطفوا يحملون السيوف والرماح والنبال والبلط ، فيلحق بالصف الأخير فيكون الجندي الأخير في جيش سقنن رع . قابضا على بلطته متحفزا للقاء الهكسوس .

- لقد بلغ الظالمون المدى (يصرخ بها سقنن رع لجنوده)

يعلو زئير الجنود ، تمتد أيديهم لقرص الشمس ؛ تلمع سيوفهم المنجلية ، تدق أرجلهم الأرض فتقرع طبولها رعدا ، يرتفع غبارها أضبة تلمع من بينها أسنة رماحهم برقا ، وبقبضة يده يضرب عل صدره ؛ يصمت الجميع ، يصرخ سقنن رع :

- لن نرضى الحياة في بلادنا عبيدا أذلاء .

هدير الجنود تهتز له الأشجار؛ فتحلق الطيور فزعا.

سعادته غامرة ؛ فقد استطاع اللحاق بجيش سقنن رع لملاقاة الهكسوس ، والتقى جيش سقنن رع مع الأعداء في قتال دامٍ مرير ، صال وجال " سِجاو " معهم حتى باغتته ضربة خاطفة خلف رأسه ، وكان أخر ما رأته عيناه قبل أن يغشى عليه سقوط سقنن رع مصابا بخنجر خلف أذنه ؛ فيحيط به جنود أبوفيس .

هرعت الممرضة تخبر الطبيب بأن الميت عادت له الحياة ؛ لقد فتح عينيه بعد سنوات الغيبوبة . تلك التي بدأت يوم اطلقت عليه رصاصة مجهولة باغتته من بين الجموع الهادرة لتستقر في رأسه على مسافة ملليمترين من موته المحقق ، واليوم بعد أن انقضت سنوات ، وبعد أن اطمأن الطبيب لحدوث المعجزة يأمر بنقله من على الأجهزة إلى حجرة الإفاقة ؛ وعلى جناح السرعة تصل أسرته ليقابلهم بعيون الدهشة ؛ فقد تغير كل شيء كبر الصغار وشاخ الكبار . يجلس الطبيب على كرسي أمام سريره يمسك بإحدى راحتيه محدثا إياه :

- إياك أن تمس مكان الرصاصة ؛ فإن حاولت تحركت فيكون موتك المحقق .

يومئ برأسه دلالة استيعاب القول ، تمر الأيام يتعافى ؛ يغادر المستشفى مع أسرته ، وفي الشارع هاله ما آلت إليه الحال ؛ تلاشت البيوت القديمة والأشجار ، باتت زرقة البحر باهتة ، وعلى رماله استقرت جنازير ضخمة صدئة قيدوا بها موجه الهادر ؛ فحمد الخافق في أعماقه ، يقدم للبائع جنيهين يطلب علبة سجائر كليوباترا . البائع بصوت غليظ ووجه متجهم :

- علبة السجاير بخمسين جنيه

يتحسس مكان الرصاصة في رأسه ، يسأل عن مصير سقنن رع .

---

5 - رسائل البحار السبعة

بعد أن التهم الزمن فصول عمره الأربعة في سفره الطويل بين موانئ العالم ، يقرر البحار العجوز للمرة الأولى أن يغادر السفينة ينظر إلى البحر يستنشق هواءه بقوة كان اليوم شديد البرودة ، فلا يُسمع سوى دوي الرياح ، مع الغروب يخرج من الميناء يبحث في الجوار عن حانة قريبة يسهل منها الرجوع للميناء ، ها هي الحانة وما أن دخلها حتى انزوى في كرسي بعيد ، يخلع العجوز قبعته ينزع الكوفية تأتيه نادلة تضع أمامه قائمة وتنصرف ، لا يلتفت إليها بل ينشغل بالنظر في أرجاء الحانة ، ثم أخرج من جيب معطفه رسائل وضعها أمامه وأخذ يرتبها ، يخرج نظارته يمسحها ثم يرتديها يفتح أولى رسائله المطوية ، وهو ينظر عبر زجاج النافذة التي تنسال عليها زخات المطر إلى الشارع و الرصيف التي خلت إلا من بعض المارة يهرولون ، تطمس السحب الداكنة ما تبقى من ضوء هزيل فتنسكب أضواء السيارات حمراء وصفراء على أرضية الشارع ، تحلق ذاكرته بعيدا يعود لرسائله والتي خطها بيده ، وفي صمت يقرأ في الرسالة الأولى

حبيبتي .. أجوب دهاليز الليل وحدي ؛ أفك شفرة الصمت ، أسبح في فضائه بلا جاذبية ، تجتاح حدودي رعشة إعصاره ، سهام لحظك تخترق عرشي ، تغريني بلقاء يجمعنا على شاطئ الغرام ، قيثارة عشقك صلاة لي ، ونغم همسك رقية شرعية ، وحدنا تحت غسق الليل تعانقين شغاف جسدي المرهق ، أرقص معك بجنون درويش يراقص فتاة غجرية ، فتضاء شوارعي ، وتبدد الظلمات ، تتهدج أنفاسي أسقط مفترشا رمال الشاطئ أناديك :

- ألا تكفيك حالي ؟

تضحكين فيفور موج البحرِ تجيبين :

- ما زالت للحكاية بقية .

*****

(٢) يفض الظرف بروية وما أن نظر لرسالته حتى تندت عيناه فيمسحها ويقرأ الرسالة الثانية

حبيبتي .. أتذكرين يوم رأيتك صغيرة تلهين ، وبأناملك الدقيقة تحتضنين الألوان والأوراق ، فيتعانق اللون مع اللون ، ترسمين وردة وفراشة ، وتدور الأيام فتطفئين شمعات السنين ، تأخذنا الغربة ، كبرت الأصابع ، بهتت الألوان ، تمزقت الأوراق ، بينما أنا في أرجوحة العمر ، يهرم صبري في متاهات الزمان ، أود أن أودع أوجاعه ، وأترك خلف قضبان النسيان آهاته ، في ليل الغربة كم رويت للنجوم حكاياتنا ، حبيبتي حلمت ذات مرة أننا في ميناء التقينا ؛ وفي صالة الوصول تاهت بيننا الكلمات ، فخطفنا منها الابتسامات ، راقبت عيناي اكتمال الزهرات ، يتناثر على وجهي رحيقها ، فأطلت من عينيك زهرات الياسمين ، يهمس بشوق عطرها الفواح ، فانطلقنا تحت جفن الليل ، ووضعت على بابك أكاليل الزهر ، فشربنا من كؤوس القبلات ، ويهمس دافئ باح لسان عشقي :

- هَيا اخلعي عنك ثوب الاشتياق ، وهلمي فلنشرب معا كأس العناق .

*****

(٣) ينزع نظارته وعلى مقعده يلقي برأسه للمسند يحملها ، يعاوده ذات الوخز في قلبه الذي يأتي ويروح ولم يفلح معه علاج الطبيب الذي نصحه بالابتعاد عن الشراب نهائيا ، يمط عينيه الناعستين عبر زجاج النافذة ، يدق قلبه مع هبة نسيم قد باحت بعطرها ؛ فتشعل وهج عشق لم يطفئه طول الفراق ، يطلب شرابا تضع النادلة أمامه كأسا وزجاجة يمد يديه يشرب كؤوس ذكريات لقائه الأخير بحبيبته ، يبتسم ابتسامة خفيفة ، يرتدي نظارته يطالع الرسالة الثالثة

حبيبتي .. أسكرتني لوعة الاشتياق ، أمطرت سمائي أهات الاشتياق لدفء العناق ، في واحة الذكريات ، تتهادين في خيلاء الفراشات ، وقد تمايلت الزهرات تقبل شفاه الغروب ، فأمد يدي أدعوك للرقص ، فتغوص عيناي في أعماق عينيك ، تتوسدين صدري ، ترقصين على أنغام نبضي ؛ أبتسم فتشتعل وجنتاك حمرة ، تتوارى عيناك خلف أجفان الخجل ، تطوقين عنقي بذراعيك ؛ تلتصق بخصرك النحيل راحتاي ، فيقطر البوح من شفتينا شهدا .

يرفع رأسه من على المسند لا يشعر بنفسه إذ ينادي طيفها بصوت مرتفع :

- أغدا ألقاك ؟

*****

(٤) تأتيه النادلة ظنا منها أنه يناديها

- هل من خدمة أقدمها لك سيدي ؟

- عذرا .

يفتح رسالته التالية وعلى سطورها ترتعد الكلمات تتبعثر ، يلملمها لينسج منها الذكريات ، يلفه ضوء شمعة تتوسط المنضدة أشعلتها النادلة وانصرفت ،فيعكسُ ضوؤها شريطا سينمائيا لحياته ، يسير بين صوره القديمة على حافة الصمت ، يرافقه كأسه وفي شرابه يرى طيفها ، يتنهد يقرأ الرسالة الرابعة

حبيبتي .. بين ثنايا العشق ترسم ريشتي ملامحك تواشيح عشق تفوح بعطر الياسمين ، يعزف نبض قلبي لحن " جانا الهوى" يهمس آهات الشوق على أنغام " أمل حياتي " ، أعدو في مروج الذكريات معك لا تسع أحلامي المسافات ، ألهو معك تحت زخات المطر ، فيفوح عطرك ينعشني ، نهرول معا فوق غيمات أغانينا ، تغوص الشمس في عمق البحر ، يعانق القمر حضن السماء ، نوقع بشفتينا ميثاق الحب ، لا نكترث بدقات الساعة ، وعقارب الزمان تدور .

يطوي البحار الرسالة التي تبوأت مكانها في أرشيف الذكريات واستحالت لاصفرار في كتاب الحياة مع مثيلاتها ، يصب كأسا يشربه على مهل ، ومن نافذة الشرود يرنو إلى الوجوه .

*****

(٥) يضع الكأس الثالثة على المنضدة وقد فرغت ، تحلق به الذاكرة بعيدا حيث زمن الصبا في بيتهم القديم . بجوار النافذة ينتظر أن تطل من نافذة بيتهم فيراها ، حوله شقشقة العصافير ، في ذلك البيت القديم ، تعانق أبخرة قهوته رائحة كتب هي كل أصدقائه ، ينفث في الزجاج ، يرسم بأصبعه قلبا ، تتناثر زخات المطر على الزجاج ، فتتوه كل الوجوه إلا وجهها يناجيه فيجيبها :

- منذ أتيتيني لم تغادريني

يفض رسالته ينزع نظارته يمسحها ومنديل يمسح جبينه يمرره على عينيه ثم يرتدي النظارة يقرأ الرسالة الخامسة

حبيبتي .. أتذكرين يوم كنت في مرسمك ، تعزفين على لوحتك بفرشاة وألوان ، تسألينني الرأي أتأملها فتوقد الألوان وجداني ، فتمزجين سمرة وجهي بحمرة شفتيك فأهمس في أذنيك :

- ضميني نرسم معا عرشا للعشاق يغار منه الحياء .

فنرقص على أنغام التانجو تتعانق روحانا مع قوس قزح ، لا تكاد أقدامنا تلامس الأرض ، ترقصين بخفة الفراشات تهديني السوسنات البنفسجية قبلة الحياة ، فنتأبط أيامنا بشغف ، نحيب الناي يصدح بالأنين يعرقلنا ، ننتصب وبقوة نمضي نرقص على نغمات تعزفها أوتار الحياة فنصيح معا :

- هي رقصتنا نرقصها مرة واحدة .

*****

(٦) يصب كأسا ، ويهيم وحده في الذكريات يبحث عنها ، يناديها بكلمات حب تزين بالورد حروفه ، يشرب كؤوس العشق ، لا تطفئ ظمأه ، تسكن حروفه خرائب السطور العارية ، يفتش في رسالته الغافية ما خطت يداه في الرسالة السادسة

حبيبتي .. كل الحروف بلا حبك تفقد عطرها ، أستحث زهرات الياسمين لتخبرك بأن تلبي ندائي . كلما جن الليل ، تعتريني رعشة البرد ، فأغمض عيني ، أضم زهر شفتيك ، تداعب أنفاسك الدافئة شغاف قلبي فتمطر سحائب أشواقي عشقا يرويني . أدور في تلك الحلقة الرخوة حتى ألبستني ثوب المشيب ، يبكي بداخلي طفل عمره خلف القضبان مسجون ، بينما حبه نقش فرعوني لا تمحوه نيران الأيام ، الآن لا أخشى إن كنت فوق الأرض أو ثاويا تحت ترابها ، لم يمت حبي بعد .

*****

(٧) فرغت الكأس بين يديه يتركها ، يشعل سيجارته ينفث دخانها يتأمله ، يشير للنادلة تأتيه مسرعة يطلب منها ورقة وقلما ، يطفئ سيجارته وبيمناه يمسك القلم بينما تحمل راحته اليسرى ثقل رأسه فيخط رسالته السابعة

حبيبتي .. تحت عباءة الليل الصامت فتحت صندوقي الخشبي القديم ، وفيه تعانق الذكريات عطر رسائلي القديمة ، التي تثير عاصفة وجداني وأشجاني ، بين غيمات الواقع الداكنة في خريف عمري تتساقط أوراقي ، أنظر إلى تلك الصورة التي جمعتنا في ربيع العمر على شاطئ البحر وقد كتبت على ظهرها بحبر صار باهتا " معا إلى الأبد ، " أين أنت الآن ؟ !!

حبيبتي صرت أحيا بين جدران وحدتي ، أغط في صمت عميق مع مقطوعات " موزارت " ، تزدحم ذاكرتي فيقاطعها صخب نوتة " باخ " ، تحوم روحي محلقة تبحث عنك في كل ميناء ، يصرخ الصمت في داخلي :

- لقد اقتربت محطة الوصول فهل ألقاك ؟ !!

إلى جوار النافذة يتخيل طيفها تتهادى ، على شفتيها الورد مروي بأنداء الصباح ، خصرها الخيزران إذا هبت على قدها الريح تميل ، نار الشوق تحرقه ، على مقعده ينظر من النافذة ، يفقد خريطته ، تضيع بوصلته ، فقد طال به المشوار وامتدت به بحار الغربة رفيقه الصمت ، ومن نافذة الحانة تتعلق عيناه بنجمة في السماء يطيل النظر إليها ، يتفصد عرقه يتنهد بارتياح ، يلقي برأسه على المنضدة بجوار رسائله السبعة ، يغفو غفوته الأخيرة فتغادر جسدها الروح لتنضم إلى سرب الطيور التي لا تنتمي إلى قفص .

---

6 - الدنيا على جناح سلامة

ذات صباحٍ يستيقظُ " سلامة " وقد غطت شمسُ الضحى جنباتِ حجرتِه ، فقد تأخر عن العملِ ، سنواتٌ طويلةٌ مرت لم يتأخر فيها يومًا عن العملِ ، يسيطرُ عليه شعورُ اللا مبالاةِ ، فالآن قد أغلق الستارَ على أخرِ فصولِ الوجعِ ، يرتدي قميصَه يتركُ الأزرارَ مفتوحةً ، يغادرُ منزلَه دونَ أن يرتدي قناعَه اليومي ، هو ليس في حاجةٍ إليه الآن ؛ فاليوم لن يذهبَ للعملِ ولن يضطرَّ لارتداءِ القناعِ ، يتسكعُ في الشوارعِ ، يستمتعُ بضي الشمسِ و صفاءِ السماءِ ؛ فالجوُ صحوٌ اليوم ، لقد أفنى عمرَه بينَ ترابِ المكاتبِ منكبًا على الأوراقِ ، وأمام البحرِ تناديه الأمواجُ فاتحةً له ذراعيها ؛ يخلعُ حذاءه وبروحِ طفلٍ يندفعُ بملابسِه ويلقي بجسدِه المثقلِ بعرقِ السنينِ وأتربةِ المكاتبِ إلى حِضنِ الموجِ ليطهرُه ، فتلك هي المرةُ الأولى منذ عقودٍ التي يغادرُ فيها روتينَ حلقتِه المفرغةِ ، فإذا به يلمحُها مع الصبيةِ على الشاطئ وقد تزينت بالألوانِ ، تداعبُها النسماتُ تتراقصُ في دلالٍ كلما تركوا لها الحبلَ على الغاربِ . لا تفلتُها أيديهم رغمَ أنَّهم على الأرضِ وهي في صفحةِ السماءِ تتهادى ، تحرسُها الأعينُ لا تحيدُ عنها إن مالت تميلُ معها القلوبُ ، برباطٍ لا ينفصمُ تتراقصُ فترقص معها أرواحُهم ، يقفُ سلامة بينَ الصبيةِ وبقلبِ طفلٍ يمسكُ حبلَها يلهو معها ، وعلى نغماتِ الموسيقى يغني مع الصغارِ ، ثم ينطلقُ بينهم على رمالِ الشاطئ يلعبون بالكرةَ ، حتى ارتدت الشمسُ ثوبَ الغروبِ الأحمرَ ، يمضي وفي الطريقِ يشتري لنفسِه طائرةً ورقيةً ، يصلُ إلى بيتِه يكسرُ المنبه يرمي القناعَ من النافذةِ ، يضعُ الطائرةَ الورقيةَ أمامَه ، وللمرة الأولى يطبطبُ عليه النومُ بحنانٍ فينامَ هانئا .

---

7 - أمطار في يونيه

لا يكترث أيوب بهندامه . فقد أدى دوره في الحياة بإتقان واستطاع أن يخفي تحت قناعه رغباته الحقيقية ؛ فبدا وجهه الحقيقي خاليا من أي ملامح مثيرة مما يصعب معها تحديد نوع معاناته وإن بدت عليه اللامبالاة الناتجة عن تمرسه الطويل بشتى أنواع المعاناة . بين أصابعه الغليظة لفافة التبغ الأخيرة معه تحتضر . بينما يراقب النهر الممتد العتيق . اليوم ثمة في أعماقه نبع قد جف منذ زمن بعيد . لقد امتلأ نبع أيوب بالدمع ، ونبت على حوافه العشب ؛ يتصاعد من داخله الأسى على عمر فات وفتور شغف لكل ما هو آت . ذبلت الأزهار وحتى الأطيار لم يعد صوتها العذب يدوم طويلا ؛ يقف متجمداً أمام النهر الممتد العتيق بجسد متهاوٍ ورأس حبلى بالأحلام والآمال . عقمت أيامه أن تلد له حلما . لقد ظل يركض في مضمار أيامه يحارب ، وما تحقق له سوى نصر بيروسي . عالمه سجن وفي نومه هروب وفي يقظته شقاء ؛ غابت عنه البراءة وضاع منه الطفل الذي كان يرى الدنيا فضاء شاسعا مملوءا بكل مدهش وجذاب ؛ فما كان يكف عن السؤال ولا تشفيه الإجابات . لم تعد للخبز والطعام تلك الرائحة التي كانت تنبعث من فرن أمه الطيني . يلتقط من الطين الأسود حجرا وبجمود همة يلقيه على صفحة النهر صانعا دوائر تبحث فيها عيناه عن مبتغاه . يمسك بآخر فيلقيه بكل قوة ربما أفشت له تلك الدوائر الإجابات .

أتعبه المشي تسقط عيناه على نواة تمر ألقتها الأحداث يلتقطها ، وإذ فجأة تركض رياح الشمال تجر سحائب داكنة تتقدمها أضواء البرق تدق لقدومها طبول الرعد ؛ تمطر السماء يغرس النواة في الأرض ؛ ربما صارت نخلة تحمل في جوفها سر الحياة فتساقط رطبا يفركها أحدهم براحتيه ليأكلها وقد طاف في ذهنه أنه قد مر من هنا إنسان .

وبوجه طفل يقطر براءة يسأل في عفوية :

- أ تمطر السماء في حزيران . أم هي دموع الرثاء ؟!

8- الأراجوز

عم عليوة قابع هناك إلى جانب الطريق الزراعية ، وعلى الطرف الآخر بنايات من طابق أو طابقين . أبوابها دوما مغلقة بجوارها مساحات مزروعة وأخرى تكومت فيها مخلفات البناء فنبتت بينها الأعشاب . ينام حيث تحط به الرحال ، ويقتات على قليل ربما يملأ البطن ويقيم رمق

الجسد المنهك ، ما أن يستيقظ حتى يحمل مسرحه على ظهره ويمضي . ما عاد عم عليوة حزينا على ما فات بل نادما على ذلك الطفل الذي اختفى أو ربما قد مات ولم يتبق منه سوى ذلك المسن السقيم الذي يتمنى الآن في نهاية الرحلة الشاقة أن يقابل عليوة الطفل ليبلغه أن ما اختاره ربما كان لا يستحق كل هذا العناء . على الدكة الخشبية داخل سرادق من الخيش الملون يجلس الطفل عليوة على الدكة بجوار أقرانه يتابع الأراجوز فتمتلئ روحه فرحا وسعادة بحكايات الأراجيز التي تملأ كل ذرة في كيانه . يسير في أثر الأراجوز مجذوبا من مجاذيبه يتعلق عليوة بسرادق الخيش الملون يشده صخب الأراجيز وحكاياتها الساخرة . وعلى ضوء مصباح هزيل يستلقي على حصيرة من خوص بجوار إخوته وبكفيه الصغيرتين مستغلا انعكاس الظل يصنع أشكالا تتحرك على الحائط يضع الأمانة المعدنية في فمه بمهارة وبصوت الأراجوز الحاد يحكي حكايات يرتجلها ويعيش فيها عالما قد اختار أن يهجر كل شيء من أجله . ظلت تلك عادته اليومية بعد أن ينقضي نهاره البائس ، ومن نجوع قبلي إلى كفور بحري عبر أزقة وحارات القرى المنسية سعيا مع أراجيزه يحمل مسرحه على ظهره ، يحط في أي مكان ؛ ينصب مسرحه يقبع خلفه رافعا كفيه بالأراجيز تحكي للصغار والكبار حكايات يصفقون لها في فرح وسعادة . يحمل مسرحه لا تفارق الأراجيز كفيه . يتوجه كل يوم لينزع ورقة عليها رقم يقدم عروضه في الموالد والحارات حتى صارت أرقام الأوراق كلها متشابهة . خيالات كفيه في انعكاس الظل على الحائط تلهمه بالحكايات ، يداعب أراجوزه فينسيه قحط الأيام . يستيقظ عليوة ذات يوم متثاقل الجسد ، يبحث عمن يناوله جرعة ماء أو لقمة يابسة يقيم بها رمقه فلا يجد سوى أراجيزه الصامتة ترمقه ، يتوجه لورقة اليوم لينزعها فلا يجد ورقة ، نفذت كل الأوراق ؛ يضع في كفه الواهنة أول أراجوز صنعته يداه يقف وراء المسرح في سرادق الخيش الباهت المترهل ليقدم عرضه لدكك خشبية فارغة . لا ينسى عم عليوة أن أول أراجوز صنعته يداه هو من دل العمدة أبو عمة مايلة منين يروح المتولي ، وأن أراجيزه هي من علمت الفلاحة الضعيفة فاطمة كيف تنتصر على طغيان العمدة عتمان ؛ يتذكر أيضا حشود المتابعين وفرحتهم بعروضه ، وراء المسرح يقدم عليوة عرضا لا يشاهده أحد ، انتهى العرض ووصلت الحكاية لنهايتها ؛ ينحني الأراجوز لتحية الفراغ ولا يستقيم بعدها أبدا .

9- على رأس الساعة

على رأس الساعة يمسك عماد بهاتفه المحمول ، ينظر في الساعة في حين تبث إذاعة الأغاني أغنية فريد الأطرش ساعة في قرب الحبيب ، يتذكر أنه رآها أمام باب السينما وهي تقترب من الباب؛

تلتمس بعضا من برودة التكييف المنبعثة من داخل السينما ، كان تلهفه إليها يفوق حرارة الصيف الملتهبة ، في حين يلتصق رواد السينما في جزء صغير يغطيه الظل تجنبا لشمس صيف قد أذاقت الأرصفة لهيبها ينضم عماد إليهم ليس رغبة في مشاهدة الفيلم ولكن للاستمتاع ببرودة التكييف ، وما أن دخل صالة العرض حتى انهار جسده على الكرسي فاتحا مسام جسده الظمأى لترتوي من برودة التكييف متمتما :

- ألا ليت الشتاء يعود يوما .

وإذ فجأة ينقطع التيار، ويغيب صوت فريد الأطرش ، وتتوقف المروحة عن الدوران؛ فتنز مسام جسده العرق ؛ فالحرارة مرتفعة يزيد من الإحساس بها ارتفاع الرطوبة ، يخرج للبلكونة ليتحاشى تأثير الرطوبة والإحساس بالحرارة الشديدة رغم أن الليل قد انتصف . يتذكر أنه رآها أول يوم استلم فيه العمل وهي تجلس على كرسي تحت شجرة في حديقة صغيرة تلي بوابة المصلحة ؛ تلتمس بعضا من نسيم يخفف وطأة الشمس المحرقة في صيف قائظ ، لم يكن عماد في حاجة لمرآة ليرى حمرة وجهه التي فاقت وجوه رواد المصلحة التي تنز بالعرق لشدة الحر وارتفاع الرطوبة ، وقد اصطفوا في طوابير سرمدية لقضاء حوائجهم ، فيردد بينه وبين نفسه أغنية محمد فوزي أي والله أي والله وحشونا الحبايب والله .

يلقي عقب سيجارته إلى الشارع ، وينظر للبيوت التي أخرسها الظلام وكبلها انقطاع التيار الكهربي ؛ يتذكر أنه رآها يوم طلبت منها أمها أن تطفئ شمعة عيد ميلادها ، وهي تنظر إليه تبتسم والضيوف كلا ينتظرون قطعة من الكعكة وكوبا من الشربات يرطب عليهم الشعور الخانق بحرارة الصيف في حين تنبعث أغنية عبد الحليم حافظ هسيبه للأيام وهي تعلمه ، عندئذ انتابته نشوة تفوق نشوة احتساء كوب من شربات الورد المثلج .

يمسك بهاتفه ينظر للساعة ، وها هي تقترب من رأس الساعة ، يعلق ناظريه بالمصباح فإذا بالتيار يعود وتعود معه الحياة للبيوت؛ فيهوى على الكنبة بجوار المروحة التي دبت فيها الروح ، يمسك بفوطة يفرك بها وجهه بطريقة لا طائل منها ، فيتذكر أنه رآها يوم الخميس وهي منصرفة من المدرسة في المريلة والشرائط البيضاء تزين شعرها ، يرفع حقيبته ، ودون أن يرميها حتى برمشة وداع يجري ليلحق ما تبقى من فيلم إسماعيل ياسين ، يدخل البيت فإذا بكل أفراد الأسرة أمام التليفزيون يضحكون والممثل حسن أتلة يضرب الفنان إسماعيل ياسين ببقايا جريدة ممتزعة وهو يقول (مين ؟! سي لطفي) .

10 - من الشمس للظل

اليوم مرت الستون على يوم صيفي قائظ غادر فيه مصطفى بطن أمه بصراخ ودموع . رباه والده تربية صارمة لم يتقن مصطفى تطبيقها مع ولده في حين كانت نصائح أمه العطوف الحانية دستورا لحياته . بجسد بدين ووجه طيب يمشى في طريق العمر بتؤدة ، داخل الجدران يسير رفيقه الصمت الثخين ، يصر كل من يعرفه أن يناديه بـ " عم مصطفى " . لا يتجرأ عم مصطفى على عبور طريق ، وإن اضطر لذلك يعبرها مترددا بعد أن يمد ذراعه يستعطف السيارات ، وما أن يعبر حتى يلقي بنفسه في أحضان الجدران يستند عليها لا يفارق الرصيف ، يقف احتراماً لمن يمر أمامه ، يلقي التحية عليهم واضعا راحته على صدره زيادة في التقدير ، وغالبا لا يعبأ أحد بتحيته فلا يردها عليه ، يخاف دوما أن يحب شيئا جديدا خشية أن يرحل كما رحل كل من أحبهم ، يسترجع أيام العمر التي انقضت ، ينتابه الخجل فلا يخفيه بل يمكنه الاعتراف بذلك بعد أن مضى العمر معظمه ، الآن وجد عم مصطفى الفرصة سانحة لتأنيب نفسه التي لم تدفعه ولو لمرة واحدة للسوء ، موقن تماما أن لابد لكل بداية من نهاية ، وها هو يقترب من النهاية ، فقد مر شريط عمره كما يمر قطار سريع من محطة قرية لا تقر بها خريطة ، ينتابه شعور من خانه النرد فأطبق الطاولة على خسارة مفاجئة ، يواصل مشيه المكسور تحت الشمس المحرقة حتى تبللت عيونه جراء عرق يتصبب من جبينه ، فإذا به يجد مساحة من رصيف قد ألقت ظلا عليها شجرةٌ ما زالت تقاوم من أجل البقاء ، يلف حول نفسه لفة كمن يبحث عن شخص قد ينهره أو يمنعه ، فلم يجد من يهتم حتى لوجوده ، تلتقط عيناه المرهقتان مشاهد الشارع الصاخبة ، وبحذر بالغ يجلس على الرصيف لينتقل من الشمس إلى الظل .

11- مقامة الشاب النحيف

حدثني زعيط ومعيط عن نطاط الحيط . عن العلامة الجليل قمر الدين أبو إسماعيل قال : أنه في بلاد الغال حيث يركبون الحمير والبغال وبينما كنت جالسا بجوار برج الحمام أكل الأرز من البرام . إذ يقبل عليَّ في لباس أخضر شاب وسيم . نحيف كما عود البرسيم . وفي يده عود قصب بزعزوعة وعينه زائغة مفزوعة . فسلم سلام الجدعان ، ووقف كما الغلبان . فاستجلسته فجلس صامتا وما همس . فسألته عما يعانيه ، وعن حاله وما فيه فقال : أنا صاحب الأرض المزروعة

والفاجعة المسموعة . إذ جمعت من الأرض المحصول ، وبعت بالسعر المعقول ، فإذا بالبيه يعوم الجنيه ؛ فهبطت قيمة الفلوس ، وحملت على راسي فانوس . فقلت : صدقت ؛ أبو قرش صار بكثير ، ونضب الماء في الزير . متحسرا قال : وإيش يعمل أبو العيال مع الحال إذا مال ، وما ذنب أهل الدار بارتفاع سعر الدولار ؟! فأجبته : ربنا يحفظ البلاد ويصلح أحوال العباد . فقال : يا أبا إسماعيل يا عالمنا الجليل ما لنا ونزاعات الكبار لقد اشتعلت الأسعار فقلت له : يا ولدي لقد ذهب الوزير عبدوس إلى ملك المجوس وقال له : يا أيها الملك . البعير هلك . فقال الملك هاموشير لعبدوس الوزير : يا للعجب ! ترى يا وزير ما السبب ؟ قال عبدوس وفي وجهه العبوس : ازداد في غيهم التجار وأشعلوا في الأسعار النار . تململ الملك وقال : لو كل كلب عوى ألقمته حجرا لأصبح الصخر مثقالاً بدينارِ . فتمتم لنفسه وزير الديار : والله لندخلن جميعا النار . وضاقت بالناس الدنيا وصعبت الأحوال وكثرت في بلاد الغال الحمير والبغال .

12- نمل وخياشيم

في قاعة عرشه المزدانة يجلس على كرسيه الذهبي الصاخب ، تحت أقدامه أحراس بينهم بيدبا بلا قرطاس أو قلم ، وبخيلاء وعنجهية ينظر دبشليم نظرة قاسية فيصيب الحرس زعر في حين يرفع بيدبا ناظريه للملك مفتر الثغر في مهابة

- حرقنا قراطيسك وكسرنا محبرتك ، وبلغني أن لديك جديدا (يقول دبشليم)

يجيب الفيلسوف بيدبا بوقار وسكينة :

- الجديد قديم في مدينة النمل أيها الملك
- وهل من جديد في مدينة النمل ؟
- ليس جديدا ؛ يحكون أنه في مدينة النمل كان النمل يعيش عيشة هادئة ، يبذلون الكد والعرق فترضيهم أرزاقهم وتكفيهم ؛ اعتاد النمل الصبر مع قليل من الثرثرة تسري عنهم وهم جلوس بعد العمل يتسامرون .

اليوم تغيرت في مدينتهم الشوارع والمباني القديمة ، تغيرت حتى الأغاني ورائحة المدينة الجميلة ، الجميع يرحلون فحلت بشوارعها عشوائية مقيتة ، حتى هواء مدينتهم صار فاسدا ،

وجدران البيوت باتت كئيبة ، حتى الأزهار ذبلت والأشجار اجتثت واستوطنت الوحشة كل حديقة .

- والنمل ؟
- مزق الجوع ثيابهم بعد أن صاروا بلا أحلام ينتظرون ، فكيف لهم أن يبقوا في تلك المدينة القميئة ؟!
- أكمل .
- في أسراب بدأت حشود النمل تشق طريقها تترا صوب البحر يسيرون ؛ ربما في عبورهم لشماله تتسع أرزاقهم وتكتسي أجسادهم السقيمة ، يتعثر النمل العجوز في صعوده الربوة العالية ، يودعونهم بصوت مرتعش يكاد ينفجر بكاء ؛ فالكل مكسور، وروحه بائسة حزينة ، بينما ترتسم على وجوه شبابهم علامات الذلة والتوجس ، وبداخلهم هم يندرج مثل أفضية سرمدية . تعتلي نملة اللوح الخشبي تنادي :
- يا أيها النمل اركبوا الألواح وجدفوا.

يركبون الألواح صامتين ، تتوغل الألواح بهم حتى اختفت وجوه العجائز وغاب البر الجنوبي . يلقي الليل بصبغته القاتمة فتحيل البحر سوادا ؛ تتوتر الرياح تثور ؛ تعلو الأمواج وتهبط تتلاعب بالألواح ؛ يملأ عيون النمل رجاء يخالطه اليأس ، ويسقط النمل في خضم البحر.

- وماذا بعد ؟
- وأسفاه . ليس للنمل خياشيم .

13- وقيدت ضد مجهول

- هل من مجيب (صرخة اعتادوها في حارتهم يصرخ بها المجذوب كل يوم)

يتسلل ضوء النهار من نافذته المتفسخة التي لا تبعد سوى سنتيمترات عن أرضية الشارع الموحلة التي تنضح برائحة العطن ، بمقدورك أن تدعوه بأي اسم فليست بالضرورة معرفة اسمه وذلك لن يفرق معه ، ولن يغير من أمره شيئا ، مجرد إنسان تتفتح عيناه كل يوم على جدران شاحبة رطبة في حجرة تضج برائحة الغبار الرطب ، ينهض متثائبا ملاذه الصمت . ينتعل نعلا بلاستيكيا متهالكا حفر على أقدامه أثار أيامه الجدباء ، يخرج من باب حجرته ، ويخطو خطوات يومه الأولى ، تعي

أنفه ما اعتادت من رائحة البول وروث قطط وكلاب تخيم دوما على حارته الضيقة التي تزاور الشمس عنها ، وهنا تبدأ بالفعل معركته المعتادة في الخروج من الحارة ، وعلى قحف نخل يعبر مصرف مصنع الكيماويات الذي يطفح سطحه بطيور نافقة ؛ يلقي بها المجذوب في المصرف ، يمسك بعصاه ويجري على حافة المصرف يهش العصافير، ويطارد الطيور دون جدوى .

يرمقه بلا اكتراث ويمضي تخترق قلوية مخلفات المصنع فتحات أنفه ، يسرع الخطو ليلحق بقطاره المعتاد ، يستقل القطار مع من هم على شاكلته ، أولئك الذين لفظتهم الحياة من رحمها وبسكين ثلم قطعت حبلهم السري ؛ لتضعهم بين حجري رحاها مع المنسيين أو كما تجري به ألسنة العامة - المطحونين - الذين لم يسألوا أنفسهم يوما عن جدوى صبرهم على تلك الأيام التي رسمت لهم فيها الحياة طريقا واحدة تسير في اتجاه وحيد ، ورغم ذلك خبروه جيدا ، وعرفوا فيه كيف يتحايلون على المعايش .

في القطار يشم ما اعتاد عليه من رائحة بصل ممزوجة بالعرق فاحت من ملابس رثة تغطي أجسادا متهاوية تنبعث من بين أسنانها الصدئة رائحة الجوع الكريهة ، وحين يتوقف القطار في المحطة المعهودة تموج الجموع في بعضها بعضا على الطريق الوحيدة ذات الاتجاه الواحد ، يندفع معهم من باب سوق الجملة يدخلون ، لا تخطئ أنفه تلك الرائحة التي تهيمن على كل شيء ، رائحة جثث قد تحللت مبعثها أكوام ورق كرتب دهستها إطارات سيارات النقل فامتزجت بطين الأرض . تغوص أقدامه تحت الطين تحمل كتفاه أجولة وأقفاصا تنوء بثقلها العصبة من الرجال ، وما أن ترتفع الشمس في كبد السماء حتى ينتهي من عمله فيعود في القطار مع ذات الروائح ، وعلى حافة المصرف مازال المجذوب يطارد الطيور .

يدخل حارته تستقبله بروائحها المعتادة . يخلع روتين نهاره الممزق ليرتدي روتين المساء الرث ، وعلى طبلية تشققت أخشابها لتلفظ مساميرها الصدئة فتفسخت تجلس أسرته يأكلون ما أفاء به الرزاق عليهم حامدين ، مدوا أرجلهم تحت ألحفة قصيرة مدهنة يتكفنون .

على حافة المصرف يجمع المجذوب كعادته ما نفق من عصافير وطيور شربت منه يلقيها في مائه ، يدق أبواب رأسه بعنف ذات السؤال .

على مدخل الحارة يصرخ المجذوب صرخته اليومية :

- هل من مجيب ؟

14 - الطير المهاجر

في سماءِ مدينتِه ترعى سحائبُ داكنةُ ؛ تسوقُها ريحٌ باردةٌ . وحده يسير عدنان وفي داخلِه طفلٌ فقدَ بوصلتَه في شوارعِ مدينتِه المُهدَّمةِ . لا يملكُ خريطةً ؛ تاهت منه الدروبُ . يحاولُ أن يتجاوزَ مخاوفَه . يفتشُ في وجوهٍ شاحبةٍ عن نظرةِ عطفٍ ، يتمنى أن يسمعَ ولو كلمةً تمسح وجنتيه المبللتين بدموعِ الفقدِ ، لا شيء في فضائه المظلمِ سوى برودةِ الصمتِ الجاثمِ على صدرِه ، بين الرُكامِ تصفعُه الرياحُ فتتداعى حواسُه وترتعدُ أوصالُه ، يبحثُ عن يدٍ حانيةٍ فلا يجدُ إلا كفوفَ الصبارِ تدمي قلبَه الأخضرَ ، يحبو على ركبتيه يتلمسُ دربَه براحتيه الرقيقتين ؛ تنخزُهما أشواكُ واقعِه المؤلمِ ، يفترشُ الأرضَ يبكي خوفًا ، ينامُ في العراءِ ؛ تحلقُ روحُه في سماءِ خيالِه ؛ فيرى نفسَه في الأورسيه أو اللوفر أو البارادو أو المتروبوليتان تمتزجُ روحُه مع ألوانِ اللوحاتِ ، يركبُ الأمواجَ العاتيةَ في ظلماتٍ كَأْداءَ لا متناهيةٍ ؛ يبحثُ عن برٍ أو ربَّما وطنٍ لم تمزقه الصراعاتُ . على شاطئ البحرِ تلتقطُ عدساتُ المصورِ جثةً مُسجاةً لفظتها الأمواجُ بعد أن التهمت روحَها ، تتصدرُ صورةُ عدنان الصحفَ والمواقعَ .

الآنَ وجدَ قلوبًا تشفقُ عليه ، وعيونًا تدمعُ لحالِه .

15- أبيض وأسود

بينَ أبيضَ وأسودَ تمضي أيامُه اللزجةُ مُضي الحلازين ، لا يثقُ في النورِ؛ يرتدي نظارتَه السوداءَ . على ضفةِ النهرِ قابعٌ ، يجبنُ أن يعبرَ للضفةِ الأخرى ، يهوى ركوبَ الترامِ إلى جوارِ النافذةِ حتى أخرِ الخطِ والعودةَ بها ، يحلقُ في الفضاءِ الأزرقِ متخفيًا ، فيه يبوحُ بكلِ جرأةٍ ؛ فلا أحدًا يعرفُه ، تأسرُه عذوبةُ الأصواتِ . يغتالُه تشحجُ البغالِ ، في المقهى يكتفي بالإشارةِ للنادلِ فيأتيه بفنجانِ القهوةِ ، يستنشقُ أبخرتَها المتراقصةَ ؛ تروي روحَه فيستوعبَ ما يدورُ حولَه ، تفترُّ شفتاه أحيانًا عن ابتسامةٍ مستحيةٍ لحديثِ نفسِه الثرثارةِ ، وبينَما انداحت دائرةُ صمتِه لتحيطَ به فإذا بعينين نجلاوين لمليحةٍ في خمارٍ أسودَ تسفران عن أنوثةٍ طاغيةٍ تفجُ بهاءٌ في الفضاءِ الأزرقِ ، وهو الباحثُ عن الماءِ في صحراءِ أيامِه ، تشتهي روحُه جميلةً تروي ظمأه ، وبيدٍ مرتعشةٍ يضغطُ على طلبِ الصداقةِ ، تدهشُه موافقتُها السريعةُ على قبولِ الطلبِ ، يعتريه إحساسٌ يدغدغُ مشاعرَه ، تحدثُه نفسُه أن يكتبَ لها على الخاصِ وإن رفضت فهذا أفضلُ من الندمِ على ضياعِ الفرصةِ ، تملكُه

روحُ المقامرِ فلو كان على صوابٍ صارت لديه فرصةُ الفوزِ بجميلةٍ تروي أرضَه القاحلةَ ، و لو كان على خطأ فلن يخسرَ شيئًا مقارنةً بما سيخسرُه لو لم يحاولْ ؛ لذا عليه اقتناصُ الفرصةِ ، ورُغمِ كونِه خمسينيًا فقد أخفي ذلك بمبالغاتٍ لفظيةٍ فيها توددُ المراهقين الفجُ لجذبِ الانتباهَ ، محاولًا من حديثِه رفعِ الكلفةِ ، فوجد صدى جيدًا منها ؛ فهي الأخرى سجينةُ وحدةٍ موحشةٍ ، وقد وجدت في حديثِه ما يشعرُها بأنوثتِها بعد أن تخطت الأربعين ، وحياةً لما بدأ يذبلُ من نضرتِها . هي الأخرى تستيقظُ مبكرًا دونَ مبررٍ تثملُها الوحدةِ ، تحبُ ركوبَ الترامِ حتى أخرِ الخطِ والعودةَ بها ؛ إن احتياجاتِ كلٍ منهما العاطفيةِ والحسيةِ قد ترفضُها العاداتُ والتقاليدُ المتشددةُ ؛ فتحولُ دونَ اللقاءِ الفعلي ، ولكن في حديثِهما على الخاصِ ريًا لمشاعرهما ؛ تزدهرُ العلاقةُ العاطفيةُ بينهما عبرَ الفضاءِ الأزرقِ ، وقد أخفى كلاً عن الآخرِ حقيقتَه ، وفي الترامِ بينما تجلسُ أمامَه امرأةٌ أربعينيةٌ تسبحُ عيناها في شاشةِ هاتفِها يتذكرُ أنَّه في الواقعِ خمسيني أعزبُ لن ترضى به تلك الفتاةُ العشرينيةُ التي يكتبُ لها على الخاصِ ، وتتأكدُ هي في لحظتِها أنَّ عدمَ مكاشفتِها له بأنَّها أربعينيةٌ عزباءُ سيعصفُ بالعلاقةِ برُمتِها ولن يقبلَ بها الشابُ العشريني الذي تكتبُ له على الخاصِ ، وسرعانَ ما تحوَّل لقاؤهما على الخاصِ إلى سببٍ للهمِ والكدرِ ، يسألُ كلٌ منهما نفسَه في ذاتِ اللحظةِ عما ورطَ نفسَه فيه ، وإذ فجأةً يقررُ حظرَها فإذا بها تحظرُه لنفسِ الدوافعِ وفي ذات اللحظة ، يغلقُ الهاتفِ يستعدُ لمغادرةِ الترامَ ، تنهضُ تلك الأربعينيةُ التي تجلسُ أمامَه في الترامِ بعدَ أن أغلقت هاتفَها هي أيضًا ، يغادران الترامَ وعلى رصيفِ المحطةِ ، يمتزجُ الظلان ظلاً واحدًا بينما شمسُ الغروبِ تلملمُ أشعتَها الحمراءَ ، وإذا بكلٍ منهما يسيرُ في اتجاهٍ عكس الآخرِ فيتمزقُ الظلّان .

---

16 - طائر الكويتزال

من بحيرةِ طبريةِ إلى سهلِ مرجِ ابنِ عامرِ مرورًا بمخيمِ جنينِ ، في يديها قلبُها قنديلٌ يشعُ نورًا، يفوحُ عطرُها في واقعٍ مُرٍ ، تصعدُ المرتفعاتِ بثباتٍ وتحدٍ ، تحملُ الماءَ ليرويَ أشجارَ الزيتونِ فتبلغَ عنانَ السماءِ ؛ ليراها القاصي والداني ماثلةً للعيانِ ، الزهرةُ تعبرُ الجدرانَ غيرُ مكترثةٍ بالأسلاكِ الشائكةِ ، لا تأبه بجنازيرِ الطغيانِ وإطاراتِ الجرافاتِ التي تعملُ حثيثًا لاقتلاعِ أشجارِ الزيتونِ كي تبنيَ حظائرَ للخنازيرِ ، تعاودُ الزهرةُ الكرةَ مراتٍ ومراتٍ ببسالةٍ وعنادٍ ليفوحَ عطرُ الحقيقةِ ؛ فتثمرَ أشجارُ الزيتونِ ثمارَ الوجودِ ، تترصدُها فوهاتُ البارودِ تطرحُها أرضًا ، بينَما ظلَّ الماءُ يصعدُ المرتفعاتِ يروي أشجارَ الزيتونِ ، تطرحُ الأرضُ حجارةً تزودُ عن أشجارِ الزيتونِ وطائرِ الكويتزالِ .

---

17 – ديوك تبيض

بينما تنظف الأم حظيرة الطيور ، ينظر الصغير إلى خن الأرانب ؛ يصيح :

- الأرانب باضت صغارا .

الأم بابتسامة رقيقة تربت على كتفه بحنو :

- الأرانب يا صغيري تلد ولا تبيض .

تستيقظُ القرية التي سقطت سهوا من ذاكرة الخريطة على أصوات ماكينات حفر ؛ البناء لا يتوقف ؛ سراية جديدة تبنى على السكة الزراعية . عاد " منصور " من الغربة ، وقد ظهرت عليه النعمة ؛ صالة المنصور للسيارات وماكينات الزراعة ، حظائر تعج بالماشية . يسكن " منصور " السراية الكبيرة . أناس يدخلون ، ومثلهم يخرجون من سرايةِ " منصور" .

في القرية يجتمع الناس على المصطبة ؛ يشربون الشاي . يمضغون الشائعات بنهم . تمضي الشهور على ظهورِ " منصور" ، وحياة القرية يطول فيها وقت الفراغ ؛ يفتش الناس عن أتفه الأشياء لينسجوا حولَها الأساطير :

- لا شك يتاجر في السلاح أو الآثار .
- الأكيد أن له علاقات بالأكابر أو أنه يأتيه مدد من الجن وأهل الخطوة .
- إن التراب في يدِه يصير ذهبا .

أفواه بلا أسنان . الشائعات نار في الهشيم ، يهرعون إليه يضربون الأرض لتخرج بطيخا ؛ يلقونه في حجر "منصور" ؛ لتمطر عليهم السماء ذهبًا ، وقد وضعَ كل منهم في بطنه "بطيخة صيفي " ، ولمَّا تأكد " منصور " أن ضرع البقرة جف تماما ؛ إذا بالقرية تستيقظ و حظائر منصور وصالاته خاوية على عروشها ، حتى السراية تصفر فيها الريح .

أمام الحظيرة صئي كتاكيت . نقيق دجاج ، وصياح ديكة .

يصيح الصغير :

- أمي . الديوك باضت ؟

18 - اللبن الصابح

مقعدٌ وطبشورٌ وسبورةٌ ، جرسُ الفسحةِ ضرب ، تلتقمُ الجبنَ بخبزٍ يابسٍ مع وريقاتِ الجرجيرِ وحبةِ طماطمِ ، وإلى جانبِ الحائطِ تجلسُ برفقةِ قريناتِها ، ومع رنينِ جرسِ الانصرافِ تخرجُ مع مثيلاتِها يافعاتٍ إلى بيوتِهن يعملنْ فقد أرضعتهن الحالُ الرضَا بالمكتوبِ ، في الليلِ يتقلبُ أبوها على السريرِ في جلبابِه الأبيضِ ، تلقي بنفسِها على الحصيرةِ ليرقدَ الجسدُ بينَما أحلامُها تحلقُ عاليًا كالطيرِ ، وفي إحدى الأمسيةِ يعجُ البيتُ الريفي بالضيوفِ رجالًا ونساءً ؛ تنطلقُ الزغاريدُ لتزفَها إلى بيتِ الزوجيةِ ، يستمرُ طنينُ النحلِ يتبعُه زنُّ الدبابيرِ ، ومع فجرِ كلِ يومٍ لا تكفُّ النحلةُ عن الطنينِ ، يجلسُ الزوجُ على الكنبةِ في جلبابِه الأبيضِ الناصعِ يلفُه دخانُ سيجارتَه ، في حين تحطُّ النحلةُ على بيوتِ القريةِ تجمعُ السمنَ وزجاجاتِ اللبنِ وسلالَ البيضِ ، وأمامَ الفرنِ تلتهبُ وجنتاها حمرةً ؛ تخبزُ الفطيرَ ، تصنعُ الجبنَ لا تجدُ الوقتَ لقضاءِ حاجتِها ، وبينَما يطفئ الليلُ قناديلَه وتتثاءبُ النجومُ في سمائِها الرماديةِ تأتي عربةٌ نصفُ نقلٍ ، يقفُ زوجُها في جلبابِه الأبيضِ يدخنُ سيجارتَه بينَما هي في جلبابِها الأسودِ يلفُها من تحتِه السروالُ ، تقومُ برفعِ بضاعتِها على العربةِ تتبعُ إرشاداتِ الزوجِ وقد جلسَ على كرسي يحتسي الشايَ ، وما إن تنتهي حتى تلقيَ جسدَها إلى صندوقِ العربةِ وأسرُّوها بضاعةً ، يربطُها السائقُ مع الأحمالِ ، وتنطلقُ السيارةُ على الطريقِ السريعةِ ، وفي سوقِ المدينةِ تفترشُ أرضَ السوقِ حولَها البضاعةُ غيرُ مكترثةٍ بقيظِ صيفٍ أو برودةِ شتاءٍ ، تتهافتُ عليها نساءُ المدينةِ يبتاعون بينَما تلتصقُ بفرشتِها حتى ترتديَ الشمسُ ثوبَ الغروبِ ، تأتيها العربةُ لتحملَ أوانيها وسلالَها الفارغةَ فترمي جسدَها المرهقَ في صندوقِ العربةِ ، تتوقُ لحمامٍ ونومٍ هانئ ، تحطُّ العربةُ أمامَ البيتِ فإذا بزوجِها قادمٌ من عندَ الحلاقِ وقد هذبَ شعرَه ونمقَ شاربَه يفوحُ منه عطرُ الكولونيا ، يمدُّ يدَه يلتقطُ منها كيسَ نقودِها ؛ يرسلُ ابنَه ليشتريَ له علبةَ السجائرِ الفاخرةِ في حين تحملُ على رأسِها الأواني والسلالَ الموحلةَ ترميها على أرضيةِ الزريبةِ ، يخرجُ الزوجُ من حمامِه فتندفعُ إلى داخلِه تفرغُ مثانتَها التي توشكُ أن تنفجرَ، في حجرتِها الزوجُ في جلبابِه الأبيضِ الناصعِ يدخنُ سيجارتَه وما إن انتهى منها حتى ألقى بعقبِها على الأرضيةِ غيرَ مكترثٍ ، تلقي جسدَها المنهارِ على الحصيرةِ تحملُ في حناياها صراخًا صامتًا ؛ تنامُ حتى يتبينَ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجرِ لتطيرَ إلى بيوتِ القريةِ تجمعُ السمنَ وزجاجاتِ اللبنِ وسلالَ البيضِ وأمامَ الفرنُ تخبزُ الفطيرَ وتصنعُ الجبنَ استعدادًا للسوقِ ، بينَما الزوجُ يتقلبُ فوقَ السريرِ في جلبابِه الأبيضِ الناصعِ ، مازالَ طنينُ النحلِ مستمرًا يتبعُه زنُّ الدبابيرِ .

19 – إنهم يزرعون الكراسي

مجرد اسم في البيت الطيني داخل الحارة الكسيحة في تلك القرية العرجاء التي لا تعدو كونها خطا في خريطة متهالكة ، يدخلها مرة في اليوم قطار مخمور يتسكع على خط السكة الحديدية ، وبصوت بح ينادي عليهم ربما يغامر أحدهم ويركبه لكن الكبار هنا تعلموا ألا يجادلوا البحر في موجه ، فهم يفضلون السير حفاة وفي أفضل الأحوال يركبون الدواب ؛ فالمسافات عندهم مثل أيديهم قصيرة ، يتجمع الصغار في ساحة الجرن المتربة ، يخرج جحا في ثيابه الرثة راكبا حمارَه بالمقلوبِ خلفه تلاميذه ، ليسألَه أحدُهم :

- لماذا تركبُ كما نرى يا سيدي ؟

فأجابه قائلاً :

وما أصنعُ ؟! إني إذا ركبت مستقيمًا تبقون خلفَ ظهرِي ، وإذا سرتم أمامي أبقى خلفَكم ، من أجلِ هذا ركوبي بالمقلوبِ هو الأصحُّ ، الحكيم يأتي متكئا على عصاته المعوجة يفترش أرض الجرن غير مبال للأتربة المتراكمة يمسك ببقايا طبشور التقطته أصابعه من بين التراب ليكتب على اللوح الخشبي الباهت

" في البلد التي تعبد عجلا حش البرسيم واعط له "

وبصوته المشروخ :

- هذا درسكم الأول تضعونه قرطا في آذانكم كي ترعوا شتلاتكم الصغيرة فتصير أشجارا لا يقتلعها كائن من كان

يمسك أصيصا يعلمهم كيف يرعون شتلاتهم الصغيرة حتى تصير شجرة تمتد جذورها في الأرض فلا تقتلعها عواصف الأيام ورياح الصدف ، يعي الصغير درسه الأول يشب عن الطوق يصير شابا ليغامر ويركب القطار لأول مرة ،فما إن ركب حتى وجد كرسيا شاغرا يريد أحدهم أن يجلس عليه فيقفز إليه سريعا ويجلس متشبثا به يود لو ينتزع الكرسي من القطار ويأخذه لكن محال ؛ فالكرسي مثبت بالمسامير إلى أرضية العربة ولا يمكن نزعه مهما حدث ، هنا يدرك ويعي ما تعلمه من الحكيم في درسه الثاني وعلى رصيف محطة العاصمة تلتف الساق بالساق فيطأطئ رأسه يدسها بين أجساد الجموع مخترقا الزحام صوب شوارع المدينة ليخرج أولا وحينئذ يعي نجاحه في تطبيق الدرس الثالث الذي تعلمه ، وعند الخروج تعلو أصوات الجموع تعترض على الحاجز المروري يمنعهم رجل

المرور رافعا عصاه فيصعدون الكوبري المعدني الكبير مرغمين في حين أغلق هو فمه لم يعترض فقط ابتسم لرجل المرور في خنوع ففتح له الحاجز المروري ليعبر وحده فوصل قبل العابرين فوق الكوبري للجهة الأخرى فيفرح لتفوقه في امتحان الدرس الرابع وأمام المبنى الشاهق تتزاحم الجموع في أوسط السلم تتلاحم أجساد النازلين بالصاعدين في حين يصعد هو من الحافة اليسرى للسلم مستندا للحائط فيصل قبل الجميع وبذلك يكون قد حقق ما قد وعيه من الدرس الخامس وعند مدخل باب الإدارة اصطفت أصائص الشتلات الصغيرة لا تعيرها الجموع التفاتا بينما يقبل ليحتضن إحدى الشتلات يسقيها دروسه الخمسة التي ضمها لتكون عقدًا في أوسطه صورةٌ لحمارٍ مربوطٍ ، صارت الشتلة شجرة ذات جذور ممتدة إلى الأعماق ، تنمو الشتلة وتصير شجرة تقوى وتمتد جذورها يوما بعد يوم ، ذات يوم وقف ساعي المكتب يلمع لوحا نحاسيا مثبتا بالمسامير على الباب الكبير وقد حفر اسمه على اللوح النحاسي وفجأة يضاء المصباح الأحمر والموظف الأنيق يحمل الملفات يمنعه ساعي المكتب من الدخول

- البيه عنده اجتماع مهم

مضت السنوات وفي السيارة السوداء الفارهة يعود لقريته التي اختفى منها القطار المخمور واندثرت معه السكة الحديدية والبيوت الطينية وتعالت الأبنية واصطفت السيارات واختفت الدواب و في الطرقات على الأسفلت نساء يرتدين البنطلونات يمشين بشعورهن السارحة دون قيود ، وفي المساء يصحبونه للاجتماع بالشباب في القاعة المكيفة وسط القرية ، يجلس على الكرسي يتوسط المنصة تترقبه العيون

- اليوم أعلمكم كيف ترعون شتلاتكم

ولما وصل بجا إلى الوليمة بثيابه الرثة ، طرده الخدم من الباب، فعاد إليهم بثيابه المدخرة وعليه عباءة أعطاها له أحد الأمراء، فأكرموه وتقدموه إلى مكان المائدة، فغمس كمه في الصحان واحدة بعد واحدة، فقال للكم كأنه يناجيه: "كل يا كمي، فلولاك ما وصلت إلى هذا الطعام " يحمل كل منهم شتلته وقد وعى دروسه الخمسة .

---

20 – برج الثور

مع كل فجر يساق إلى دائرته المظلمة ، وما أن يمر الوقت حتى تجلده بلهيبها شمس بؤونة ؛ فيتشقق بسياطها جلد ظهره . في مسيرته القاتمة وحيدا لا يرى بصيص نور . فقط وحده في دائرته التي لا تنتهي حتى تئن مقادمه . هي نفس الخطوات إجبارا لا اختيارا يمشيها حتى في زمهرير كيهك . لا يدري نهاية لها . يعجز أن يحرر عينيه من قيد يطمس النور . ليس من حقه التوقف ليأكل ، أو يطفئ غلته . إنه يسير ذات الخطوات في تلك الدائرة اللعينة ، يمزقه الحنين لحليب أمه التى غابت عنه ولم تعد . يشتاق لذلك الدلال الذي تمتع به صغيرا ، وغاب عنه حين شب ، وصار قادرا ليساق لذات الدائرة . لا يعرف لماذا يغطون عينيه ، ولماذا يسير كل هذه المسيرة في خطوات قليلة مكررة مئات بل آلاف المرات .

ينساب لأذنيه أصوات العصافير من أعلاه . يحاول أن يحاكيها ؛ لكن صوته ليس كصوت العصافير ، وعندما تخف حدة الشمس يسمع ذات الخطوات تقترب منه . هو يعرفها جيدا . فعندها فقط سيتوقف عن الدوران في تلك الحلقة المفرغة . تمتد اليد التي تنزع عن عينيه تلك الغمامة المقيتة . يسمع أصوات العصافير تتعالى من فوقه ، وقد توقفت الشمس عن جلده بسياطها الملتهبة .

يسير في طريق العودة لغذاء قد تعود الحصول عليه في مثل هذا الوقت مع شراب يرطب كبده ، وما أن يدخل إلى مأواه حتى تتجمع على بدنه المرهق كل الضغوط ؛ ينتابه التعب الشديد الذي يكاد معه أن يتوقف قلبه . يحاول أن ينادي على العصافير ؛ يريدهم أن يأخذوه معهم حيث البراح .

جن الليل ، واختفى معه صوت العصافير ، وعلا صوت صرصور الليل ، ونقيق الضفادع . يزيد خواره عاليا يناديهم ، تسيل مقادمه على الأرض ، ويخرج الزبد من فمه ؛ فإذا بالأقدام حوله تهرول ، والصيحات تتعالى .

يقدمون له الطعام فلا يعبأ به . يناولونه الماء فيعفه غير حافل به . يكثر الهرج والمرج حوله . يصحبه عويل نساء كن يجمعن ما يخلفه يوميا ، وينظفون الأرضية تحته ، ويفرشون له التراب والقش ، ويقدمن له البرسيم أو التبن .

يخفت العويل . يزداد ضجر الرجال ؛ يقبلون عليه مسرعين . يقيدون مقادمه بالحبال بلا شفقة . في دهشة يتساءل :

- لماذا يقيدون مقادمي ؟

21 - المريلة

شبَّ الوليدُ ؛ يدخلون به من البابِ الكبيرِ ، يلبس الحذاءَ الجديدَ فوقَ الجوربِ الناصعِ ؛ يزهو في المريلةِ الصفراءِ . المعلمُ ينادي الجمعَ الذين اصطفوا ؛ ينتبهون :

- ثني مد .. صفا انتباه .

تتسلقُ أعينُهم الصاري تعانقُ العلمَ ؛ ينشدون للوطنِ نشيدًا حفظوه ، ثم إلى الفصلِ يساقون ؛ يجلسُ كلٌ منهم على تختةٍ له حددوها . قيامًا للمعلمِ يرددون التحيةَ . يُضربُ الجرسُ ؛ يفتحون الكتبَ والكراريسَ ؛ يخطُ الطباشيرُ الأبيضُ على السبورةِ السوداءِ ليبدأ الدرسُ :

- ألفٌ باءٌ .. واحد اتنين ..

تعانقُ الألوانَ أصابعُهم الدقيقةُ ترسمُ وردةً وعلمًا ، وما أن انتهوا ؛ يذهب الجميعُ ليسقي ما زرع من حباتِ فولٍ على قطنٍ أبيض . سؤال و جواب .. ارفع إيدك .. اكتب احسب .. احفظ سَمَع .. قلم أحمر .. تاخد نجمة .. فُسحة ولُقمة .. ضحكة ولعبة .. لِم الكراريس .. ضُرب الجرسُ ؛ تراويح ... ؛

شابَ الوليدُ ؛ يدخلون به من البابِ الكبيرِ . الإمامُ ينادي الجمعَ الذين اصطفوا :

- صلاةُ الجنازةِ أربعُ تكبيراتٍ .

---

22 - البرابرة في المدينة

يُرفَع الستارُ وعلى خشبةِ المسرحِ المظلمةِ يمشي السلطانُ مطأطئَ الرأسِ في عباءةِ المُلكِ تجرجرُ على الأرضِ ، يحيطُ به ضوءٌ يخبو شيئًا فشيئًا ، يضعُ سيفَه على كرسي العرشِ ينسحبُ في انكسارٍ ، ومن بابِها يودعُ المدينةَ متحسرًا فيظلمُ المكانُ . خلفَ كواليسِ المسرحِ جلبةٌ وصياحٌ ، هتافٌ جماهيري يشقُ عنانَ السماءِ . صوتُ دبابةٍ تحاولُ دخولَ المدينةِ ؛ يضيقُ عليها البابُ ؛ يصيحُ راكبُها بحماسٍ يشعلُ الهممَ ؛ تنجذبُ إليه الألبابُ :

- حطموا البابَ فندخلَ المدينةَ .

تسيرُ الدبابةُ في شوارعِ المدينةِ ، وفوقَ صهوتِها يشاهدُ راكبُها القصورَ ، والحدائقَ الغنَّاء تحتضنُ أعمدةَ المعابدِ والتماثيلَ الرخاميةَ ولوحاتِ الفسيفساءَ الملونةَ .

يصيحُ بغضبٍ كالمعتادِ فتستجيبُ له الغوغاءُ :

- افتحوا القصورَ وكدسوا فيها المكاتبَ والأوراقَ . اقتحموا حدائقَها للهوِ والألعابِ .

البرابرةُ قادمون يتكاثرون ، وأبناؤهم يتزايدون ؛ لزعيمهم يتوجهون :

- أينَ نلقي قمامتَنا والأوساخَ ؟
- ارموها فوقَ الأرصفةِ أو في منتصفِ الطريقِ أو حتى أمامَ كلِ بابٍ .
- رائحةُ النتنِ ستفوحُ في شوارعِ المدينةِ كلِها ؛ تزكمُ الأنوفَ .
- لا تهتموا ، على رائحةِ النتنِ سوف يتعودون .
- وأينَ نتعبدُ ؟

يمطُّ رقبتَه يصعرُ خدَه يفردُ ذراعَه عن أخرِه وبالسبابةِ يشيرُ :

- تحتَ كلِ بناءٍ وفي كلِ حارةٍ وزقاقٍ .

تزلزلُ الميكروفوناتُ سكونَ المدينةِ ؛ تصمتُ الموسيقى تفزعُ الأطيارُ تسكنُ أعشاشَها البومُ والغربانُ ، تضيقُ الشوارعُ بالبرابرةِ ، يصيحون :

- هلموا وزيدوا في بناءِ العشوائياتِ لتسكنوها .
- احرقوا الكتبَ أو ارموها في البحرِ لنفسحَ مكانًا لعرباتِ الفولِ والكافيهاتِ .
- ضعوا بضاعتَكم في الشوارعِ حولوها لأسواقٍ .
- افترشوا الحدائقَ بكلِ ما يُشترى ويُباع .

ينظرون للتماثيلَ ولوحاتِ الألوانِ ، تنسابُ إلى آذانِهم تلك الموسيقى المنبعثةَ من فوق الأفنانِ ؛ فينهالون بالفؤوسِ يقطعون الأشجارَ ، ويزرعون الأسمنتَ في كلِ مكانٍ .

يناديهم الزعيمُ بنبرةٍ صارخةٍ :

- أنتم أبناءُ البرابرةِ ، البسوا ما تشاءون ، غنوا ما تحبون ، اهدموا ما تكرهون .

تغرقُ روحُ المدينةِ في الضبابِ ، تنطفئ الأنوارُ ، يظلمُ المكانُ ، تنعقُ الغربانُ ، ينبعثُ صوتُ الجوقةِ من خلف خشبةِ المسرحِ

- نحن البرابرةُ ورثنا المدينةَ وما عليها ولا نعرفُ للذوقِ جسدًا أو عنوانًا ، وفي صوتٍ واحدٍ يصيحون :

[المدينةُ والبحرُ لنا .. المدينةُ والبحرُ لنا]

يُسدَلُ الستارُ .

---

23 – باب البحر

على رمال الشاطئ تحت الشمس ، وبأيدي صناع مهرة صرت ملكا . نزلت للماء . قابلت البحر . لا أهاب الموج . بذراعين طويلتين قويتين أدق باب البحر ؛ تهتز صفحته تحتي ، وبصدر مفتوح ، وبجرأة الفارس الذي يشق صفوف أعدائه ، ولا يخشى كثرتهم ، وأسنة رماحهم ، وإن سقط مضرجا في دمائه على أرض ساحة الشرف . مهما اشتدت الظلمة ، أو قيظ الشمس أشق صفحة الماء . أجد بهمة مع نور الصبح الوليد وراء رزق تحت الماء يسبح ، وفي الغروب أتهادى مع العشاق أسقيهم كؤوس النسيم . لا أعبأ بالبحر اللجي ؛ أمخر عبابه في خيلاء مهما هزتني صفحته . أعانق " كاليبسو " عروس الماء ذات الشعر الكهرماني ؛ فيرسل البحر موجاته العجوز ؛ يريد أن يشعرني بقوته . أتمادى في خفة الفرسان ، وفي ثقة الملك ثابت الخطو . لا أخاف غائلة أمواجه . أضحك منه كلما يحكي لي كيف غضب على " أوديسيوس " ، وأبعده لسنوات عن " بينيلوبي " الجميلة . أسرع الركض في رشاقة أيائل " أرتميس " . أتمايل هازئا منه ؛ فلم يتبق لديه سوى موجات ترهلت بمرور السنين ، وحواديت عنفوان شبابه الذي انقضى ، ولن يعود . أجري على صفحة الماء . تفقأ ذراعي الطويلة عيون الموج الرخو غير مكترث به .

فإذا بنوة ليل تهيج لها السحب . يشق فيها البرق سواد الليل القاتم . يزعق لها الرعد في بوقه النحاسي ؛ فينتفض " بوسيدون " فاردا ذراعيه لأعلى ؛ يتطاير رداؤه يبعثرني . فإذا بي على رمال الشاطئ أشلاء مبعثرة ؛ تسيل من عينَيّ دموع مالحة . لا تطفئ آلامًا سرمديةً ستُلازمُ وحدتي على رمال الشاطئ تحت الشمس .

---

24 - قدورة أبو العيال

مع الغروب أحرص على مغادرة البيت بعد أن تخف وطأة الشمس من الشوارع لتختزنها البيوت فكأنها أفران الخبز ، وعلى مقهى " الصمطي " القريبة من محطة القطار أجلس على رصيف المقهى ؛ أستجدي نسمات هواء بينما أشرب القهوة وفي صمت أقرأ أو أكتب ، ولم يكن غريبا أن يأتي عم " قدورة أبو العيال " في صورته التي اعتدت عليها ، رجل قصير القامة متوسط القوام ليس بالنحيف ولا السمين يلف راسه عمامة يرتدي الصديري تحته فانلة مفتوحة الصدر وسروال الصيادين الواسع المنتفخ وكأنه زوربا الإسكندراني " سيد حلال عليه " يمشي في الشارع يطوح زراعيه كأنه فتوة من فتوات بحري . يلقي التحية على الجميع بصوت مرتفع بينما الجمع مشغول بمشاهدة التليفزيون الملون الجديد . يجلس بجواري يطلب الشاي في كوب صغير كعادته فهو كثير الشرب للشاي رغم تخطيه السبعين ، يضع أمامه علبتين سجاير كليوباترا أحدهما مفتوحة لا يمر وقت كثير بين تدخينه سيجارة وأخرى ، يضع رجلا على رجل في ألاطة ينفث الدخان ويحتسي الشاي . نزعت النظارة الطبية عن وجهي وأخرجت سيجارة ، ولما رأيت في عينيه الرغبة في التدخين قدمت له واحدة فتناولها بامتنان ، أشعلها وسحب نفسا ثم نفث دخانها . يبتسم لي فيبرز لمعان السنتين الفضيتين من بين أسنانه :

- فكرتني بالغندقلي أفندي (قالها باسما)

فقلت (وهل هذا مدح أم ذم) افتر ثغره ، وترك كوب الشاي ، ورجع بظهره ليسنده على ظهر الكرسي :

- كان هذا من زمن بعيد .

- احك لي .

فإذا بالتيار الكهربي ينقطع في الشارع كله لتنفجر الآهات تحسرا لانقطاع إرسال التلفزيون الملون الذي اشتراه المعلم "عبد اللطيف الصمطي " ليجذب المزيد من الزبائن إلى مقهاه ، فقد كان يعمل في دولة الكويت لسنوات ، وعاد ليفتح تلك المقهى ، وهي الوحيدة التي بها تليفزيون ملون كبير يبلغ 21 بوصة ، يضحك " قدورة " بلا صوت يظهر ذلك من لمعان سنتيه الفضيتين الذي أضاء في وجهه ، يسعل سعالا خفيفا فيقول

- الغندقلي أفندي كان مديري في الشغل (بضحكة ساخرة قالها)

- أكيد كان مديرا مؤذيا

- أيام وراحت لحالها

- وما عملك يا عم قدورة

- جايلك في الكلام

(2)

استندت بظهري وألقيت بمسامعي إليه فقال :

- كان أخي " سعد " يبيع الحلاوة العسلية ، ولديه عدد من الماعز يربيها حتى كان يوما إذا به يناديني وكان المؤذن قد انتهى لتوه من آذان المغرب : (تعالى دور معايا على الجدي دخل إلى خط النار ولم يخرج) قالها بعنف وكنت في الثامنة وهو يكبرني بعشر سنوات

- خط النار كلها عفاريت وأنت تعرف أنهم يدفنون فيها قتلى الحوادث المجهولين ومعهم كمان ريا وسكينة أخاف عفاريتهم تطلع لي

قلت ذلك بخوف فإذا بكفه تلسع خدي ويسبني (هتدخل تطلع الجدي يا هطلع دين *...) زاعقا قال

- وماذا بعد يا عم قدورة

- ما باليد الحيلة ، توغلت في أرض خط النار فوجدت الجدي ، هرولت إليه ورفعته لصدري والجدي يمأمأ ، وما إن خرجت لأخي الذي ينتظرني خارج السياج حتى وجدت نفسي أحتضن ذراعي فارغة ولا وجود للجدي فصرخت ، وانطلق أخي جريا وأنا وراءه حتى وصلنا للعمار ، وهنا أفقت فوجدت أمي تضع لي الكمادات وترقيني وحولها النساء كل بكلمتها (طاسة الخضة أحسن علاج - رقيتك واسترقيتك من كل عين شافتك – الواد لابسه عفريت نجيب له الشيخ وهبة - ولا صلتش على النبي - ده راجل مبروك – اعملي له لبخة - رقيتك واسترقيتك بالصمدية وقل أعوذ برب الفلق - يصبح زي الفل يا أم سعد - ومن شر الوسواس الخناس – اسم الله عليك يا حبيبي)

يدخل الجار البدوي عم " شيختير " فينصح الأم بأن تدخل " جدورة " المدرسة هكذا ينطق اسمه بالجيم المضمومة على خلاف الجيران الذين ينطقونه " أدورة " بالهمزة المفتوحة

- المدرسة تابعة لجمعية العروة الوثقي الخيرية وسيدخلها " جدورة " بالمجان لأنه يتيم

تبيع الأم خلخالها الفضي الضخم لتشتري لقدورة بزة جديدة وطربوش وحذاء ، وكانت المرة الأولى التي يلبس فيها قدورة حذاء ؛ فقد عاش سنواته الثمانية حافيا يلبس جلبابا قصيرا دون سروال ، وفي الصباح

(3)

يطرق عم شيختير البدوي باب الكشك الصفيح فتخرج

" جليلة " يمتلئ وجهها بالسعادة وفي يدها قدورة بالبزة والطربوش ، يتعثر قليلا في مشيته بسبب الحذاء الجديد الذي يلبسه دون جورب ؛ فتلك المرة الأولى في حياته التي ينتعل فيها حذاء ، يمشي عم شيختير ممسكا بيد قدورة إلى باب شرق ليركبا الترام ، وما إن تحركت الترام حتى تشبث قدورة بجلباب عم شيختير خوفا من الترام التي طالما سمع من أمه وجاراتها أنها تأكل الناس تحت عجلاتها إذا صدمتهم أو سقطوا منها ، وما أن وصلت الكهربا كما كانت الناس تسميها آنذاك إلى شارع السبع بنات فينزلان منها ، وقدورة ممسكا بجلباب عم شيختير ، يخطف عينيه حركة الكارو ذات العجلات القصيرة تجرها البغال والحمير والمحملة ببالات القطن القادمة من مينا البصل والحناطير التي تجرها الخيول منها المسرعة ومنها المتباطئة يسمع إيقاع حدواتها على البازلت الأسود ، وفي المدرسة يفتح لهم عم سعيد الفراش باب المدرسة يصعد الدرج الرخامي تصطف على جانبيه أصائص الزرع الأخضر ، يمشي على بلاط قد رسمت عليه زخارف نباتية ملونة يراه للمرة الأولى في حياته ؛ فهو يسكن مع أمه في أكشاك من صفيح يغطي سقفها الخيش المقطرن وأرضيتها رملية ، وأمام الباب الخشبي العالي يطرق عم سعيد الفراش الباب ويدخلون لحجرة الباش كاتب ذات السقف العالي والأرضية الخشبية وإلى المكتب الكبير يجلس الباشكاتب يعتمر طربوشا وقميصا أبيض له أكمام سوداء ، يقف قدورة بجوار عم شيختير أمام مكتب الباشكاتب الذي رفع عينيه عن الورق المكدس أمامه ، ودار حوار بينه وبين عم شيختير بينما انشغل قدورة منبهرا بما تراه عيناه في حجرة الباش كاتب ، ويسجل الباشكاتب بيانات التلميذ الجديد في سجلات المدرسة فيكتب اسمه كما سمعه من عم شيختير " جدورة " بالجيم ، ومن يومها صار ذلك اسمه في الأوراق الرسمية والذي صدرت به شهادته الابتدائية ، كان الأفندية ينادونه " جدورة " وهو يعتقد أن هذا هو النطق الصحيح لاسمه فلا يمكن للمعلمين أن يخطئوا في كتابة اسمه أو نطقه ، وصار تلميذا في المدرسة واعتاد ركوب الكهربا دون خوف واستمرت الحال حتى جاء يوم أعلن فيه الناظر " فهمي أفندي جبر " إقامة يوم رياضي ؛ فطلب " عثمان أفندي سرور " مدرس الألعاب من كل التلاميذ خلع بزاتهم والوقوف صفا

بالشورت والفانلة الداخلية (قالها زاعقا كالمعتاد) فانصاع كل التلاميذ للأوامر إلا " جدورة " لم ينفذ لأنه إن خلع بزته لا شيء تحتها يستر عورته ، يكرر عليه "عثمان " أفندي الأمر (اخلع هدومك يا بغل) قالها غاضبا وجدورة لا ينطق ببنت شفه فيضربه بالخيزرانة وجدورة يتحمل ألم الضرب فهو عليه أهون من فضيحته أمام التلاميذ إن عرفوا أنه يرتدي سروال بزته على اللحم ، لم ينقذه من الخيزرانة سوى وصول الناظر" فهمي أفندي جبر" والذي استدعى عثمان أفندي (دقيقة من فضلك يا عثمان أفندي) بحزم قالها الناظر فهرول إليه عثمان أفندي يهندم بزته ويستعدل طربوشه واصطحبه معه الناظر إلى مكتبه ، وهنا ضرب عم " سعيد " الفراش الجرس ؛ فارتدى التلاميذ بزاتهم واعتمروا الطرابيش ، واصطحبهم الشيخ " حسن عبد الأول " معلم اللغة العربية إلى الفصل ، وكان جدورة ذكيا عرف عنه جمال خطه ومهارة المطالعة والإنشاء إلا أنه كان في الحساب متوسط المستوى وهو ما كان يتسبب دوما في ضرب " حافظ أفندي ياقوت "مدرس الحساب له بالخيزرانة مما زاد في كرهه لحافظ أفندي وحصة الحساب ، ومرت السنوات الأربعة وحصل جدورة على الشهادة الابتدائية وقد ذيلت بعبارة " يعمل بها كمسوغ للتعيين في الوظائف الحكومية وغير الحكومية " ، ظل جدورة مع أمه يرعى أغنامها ، يسعد أيما سعادة إن طلب أحدهم من أمه أن يكتب " أدورة " له مرسالا يرسله لذويه ، وكانت بطنه تمغص عليه ويشعر بالغثيان إن طلب منه عم شيختير إجراء عملية حسابية ما بعد بيع بعض الماعز للصاوي الجزار ، وقد كانت أكشاكهم الصفيحية على مقربة من خط النار والذي يحده من الجهة البحرية معسكر للعساكر الإنكليز في الأرض الرملية الشاسعة الموصلة لشط البحر عند مقام سيدي محمد الشاطبي

- أين خط النار هذا يا عم قدورة

- مكان كلية الهندسة الآن

- ياه .. وماذا بعد يا عم قدورة

(4)

وفي يوم أسود توارت فيه الشمس وتبعثرت السحب الداكنة في صفحة السماء وعبثت الرياح الباردة بالرمال ، كان جدورة يلاعب تيسا كبيرا يناطحه بكفه والتيس يعدو إليه فيمسك بقرنيه يلوي رقبته ويوقع به أرضا ثم يتركه ويعيد الكرة ، فإذا بثلاثة جنود إنكليز ينادونه ، فيقف أمامه أحدهم يلبس بلوفر صوفي فوق قميص كاكي ويرتدي سروالا وحذاء أسود وبيريه أحمر مثل وجهه يلوح بقبضتي يديه لجدورة قائلا (بوكسينج) يقولها الإنكليزي بحماس وقدورة فاغرا فاه بضحكة بلهاء لا

يفهم معنى " بوكسينج " فقط يردد (يس سير .. يس سير) فهو لا يعرف غيرها من الكلمات الإنكليزية فيمسك العسكري الإنكليزي بكفي جدورة يطبقها ويشيح في وجهه ففهم جدورة أنه يريد منه أن يفعل مثله وما أن قبض على كفيه ومدهما كما يفعل الإنكليزي فإذا بالعسكري يلكمه بقبضة يده لكمة قوية تطيح به أرضا ويفقد سنتين من أسنانه وتفتح له جرحا قطعيا في شفته العليا التي تورمت في الحال فضحك العساكر الإنكليز بينما أعطاه هذا العسكري نصف ريال فضة وهو يربت على كتفيه قائلا له : (آم سو سوري) وجدورة يتحسس جرحه يمسح الدم وما إن نظر لنصف الريال حتى ابتسم ابتسامته البلهاء ومضى العساكر في اتجاه باب شرق حيث ترام المدينة ربما عندهم مسامحة لقضاء بعض الوقت في بارات السبع بنات أو قضاء ليلة حمراء في بيوت " كوم بكير " وهذا سر السنتين الفضيتين في فم قدورة حزنت جليلة لما أصاب قدورة فطلبت منه أن يبحث عن وظيفة بدلا عن رعي الماعز وذات يوم يتوجه قدورة إلى البلدية في " سيدي أبو الدردار " ومعه شهادته الابتدائية وكان في السابعة عشرة وتقدم بطلب وظيفة فهو متعلم ومعه ابتدائية وبالفعل تم تعيينه " كناسا " وتسلم العمل في شارع لاجيتيه في حي الإبراهيمية " حي الخواجات " وكان سعيدا بعمله في حي الخواجات حيث نظافة شوارعهم والتي لن تحتاج منه مجهودا كبيرا كما أنه حتما سيحصل على بقشيش من أصحاب المحلات التجارية من الخواجات ، فكان يشتري من البقشيش الأنشوجة والجبنة الروكفور وخبز فينو من مخبز الخواجة " استاولوا فينو " ، فقد أكلهم ذات مرة عند الست " بِبا " التي تسكن في الڤيلا الصغيرة على مشارف شارعهم وتعمل حكيمة في الاستبالية اليوناني في الحضرة ، ويجلس على الرصيف ويأكل ما لذ وطاب ، لا ينغص عليه حياته سوى الباش ملاحظ الذي يصل راكبا دراجته الأميرية يرتدي بزته الكاكي ذات الأزرار النحاسية يزينها الهلال يحتضن النجمات الثلاثة ، وهو يعرف بأمر البقشيش ويطمع أن يعطيه قدورة ولو ثمن علبة دخان " كوتاريللي " ، ولكن جدورة يرفض أن يعطيه شيئا ؛ فيقدم الباش ملاحظ تقريرا سيئا عن جدورة للغندقلي أفندي مدير المنطقة ، والذي بدوره يستدعي جدورة للتحقيق معه فيما ورد في تقرير الباش ملاحظ عن تقصيره في العمل فكلما يمر عليه يجده جالسا على الرصيف يأكل تاركا مكنسته إلى جواره ، ينزع الغندقلي أفندي نظارته الطبية عن وجهه ويخرج سيجارة مكنة ماركة " هوليوود " يشعلها ويأخذ نفس دخان وينفثه ثم يسأل جدورة عما جاء في تقرير الباش ملاحظ

- هو رجل ظالم ويريد أن يأخذ مني كل يوم علبة دخان أتاوة

- أنت مستخدم مهمل وتتحدث عن رئيسك في العمل بوقاحة

ويحتدم الحوار وتعلو الأصوات ؛ فيقرر الغندقلي أفندي توقيع الجزاء على جدورة ونقله إلى كشك حراسة مقلب الزبالة عند ترعة الفرخة ناحية محرم بك

(5)

يحزن جدورة أشد الحزن لهذا النقل التعسفي ، ولكن كبرياءه يعينه على التحمل والتظاهر بعدم الاكتراث لتوقيع الجزاء عليه وقرار النقل لمقلب الزبالة عند ترعة الفرخة ومكانها شارع قناة السويس الآن ؛ حتى لا يشمت فيه الباش ملاحظ والغندقلي أفندي ، ولكن ليس ذلك كل شيء ، المشكلة الكبيرة أن الحراسة في ذلك المكان النائي الخالي من الناس بالتناوب أسبوع يعمل في النهار ولا ضير في ذلك فقط رائحة الزبالة النتنة خاصة في أيام الصيف ، القلق كل القلق في أسبوع العمل الليلي خاصة أيام الشتاء وهو ما حكاه له زميله في المناوبة " محمد مهنا " ذلك الرجل ضئيل الجسم باسم الثغر دوما (المكان مسكون بالعفاريت) بضحكة عالية قالها لجدورة ، ولا يعرف زميله " محمد مهنا " أنه بذلك يجدد على جدورة ذكريات خط النار الأليمة التي تصيبه بالغثيان ، وظل الشغل الشاغل لجدورة أن يقنع أحد أصحابه في كل مرة ليصحبه ويقضي معه الحراسة الليلية ويغريهم بأن الشاي والدخان على حسابه وبذلك نجح جدورة في تخطي أسابيع الحراسة الليلية ، وذات يوم بارد من أيام الشتاء القارص اتفق مع "علوان " ابن عم شيختير ليرافقه في تلك الليلة ، وما أن وصل علوان حتى جمع قطع خشب وأشعل فيها النار حتى طقطق الخشب في المنقد وأعد الشاي الثقيل سكر زيادة ، وناوله جدورة سيجارة مكنة ولم تمر سوى ساعتين ولم تدخل العتمة بعد (أنا تعبت يا جدورة أنا مروح يا عم مش قادر الجو برد) بتخاذل قالها علوان ومضى ولم تفلح توسلات جدورة وحيله في إقناع علوان بالبقاء معه طيلة الليل ، يدخل جدورة إلى الكشك الذي لا يتسع سوى لشخص واحد يجلس على عارضة خشبية تتوسطه له باب وفتحة عن يمينه وأخرى عن يساره لا تزيد عن الشبرين ، ويغلق الباب عليه ينظر إلى الظلام الدامس من الشباك الصغير للكشك من جهة اليمين مرة ومن جهة اليسار مرة ، ويشعل السيجارة تلو الأخرى لا تخترق أذنيه سوى خشخشة القوارض في أكوام الزبالة المكدسة في الخلاء ونباح الكلاب ونقيق الضفادع الذي يصل إلى مسامعه من الهيش المكدس على جانبي ترعة الفرخة ، يركن رأسه فيغفو قليلا ، ينتفض على صوت الباش ملاحظ يناديه ليوقع له على الكارتة فيثبت وجوده في عمله ؛ يخرج من كشك الحراسة الخشبي مهرولا فلا يجد أحدا ، يتلفت حوله لا أثر لإنسان ، يفزعه صوت باب الكشك يرتطم بفعل الرياح يشعر جدورة بأنفاس وكأن أحدهم بجواره يقشعر بدنه يجري على باب الكشك يشد الباب فلا يفتح وكأن أحدهم يمسك الباب يجذب الباب بشدة فإذا برجل أسود برأس كبير وشعر كث يخرج لسانه

الأحمر بطول ذراع يلعق به وجه قدورة الذي صرخ وسقط على الأرض في الزبالة والوحل فنهض مفزوعا وأطلق ساقيه للريح يكاد قلبه أن ينفجر حتي وصل إلى مخزن التورماي .

(6)

- وماذا بعد يا عم قدورة ؟

- أفقت فوجدت أمي تضع لي الكمادات ترقيني وحولها النساء كل بكلمتها (طاسة الخضة أحسن علاج - رقيتك واسترقيتك من كل عين شافتك – الواد لابسه عفريت نجيب له الشيخ وهبة يا ناس - ولا صلتش على النبي - ده راجل مبروك – اعملي له لبخة - رقيتك واسترقيتك بالصمدية وكل أعوذ برب الفلق - يصبح زي الفل يا أم سعد - ومن شر الوسواس الخناس) يدخل جارهم البدوي عم " شيختير " فينصح الأم بأن تزوج جدورة (هذا دواه (قالها عم شيختير بكل ثقة تقتنع الست " جليلة " وتبيع الكردان الذهبي لتشتري سريرا نحاسيا وكنبة عربي وطبلية خشب وتستأجر أودة بحمام شرك في منزل عوف الفطاطري وتزوج قدورة من " ذكية " ابنة خالته رغم حبه لـ " فاطنة بنت جمعه البقال " فوافق فورا على " ذكية "عندما علم من أمه أن " فاطنة بنت جمعه البقال " صلعاء

وفجأة عاد التيار الكهربائي (هيييبه)علت بها أصوات الناس يشاركهم عم قدورة الفرحة ويفتح المعلم عبد اللطيف التليفزيون الملون يصفق معظم رواد المقهى تتعلق أنظارهم به يتابعون بفرحة أغنية الإعلانات (محمود إي دا يا محمود)

- وبذلك انحلت عقدتك يا عم قدورة وعشت في تبات ونبات وخلفت صبيان وبنات وصار اسمك (قدورة أبو العيال)

- طبعا لأ .. أنا اتجوزت أربع مرات ومخلفتش عيال .

- لماذا ؟!! (قلتها بحيرة واندهاش)

بابتسامة بلهاء يضع قدورة رجلا على رجل ينفث دخان سيجارته بكل ألاطة :

- انت نسيت خط النار .

25- عندما يأتي المساء

بينما يجلسُ وحيد في غرفتِه يبحثُ عن الاسترخاءِ والأمانِ لمزاجِه المتقلبِ . تعبثُ أصابعُه بمفتاحِ الراديو فإذا بصوتِ محمد عبد الوهاب يشدو:

عندما يأتي المساءُ .. ونجومُ الليلِ تُنثَر.

اسألوا الليلَ عن نجمي .. متى نجمي يظهرُ .

بكلماتِ تلك الأغنيةِ الكلاسيكيةِ تلهو شفتاه ؛ تأنسُ روحُه بأنغامِها العذبةِ ؛ خجولٌ يعتادُ الوقوفَ على ضفافِ الحياةِ بصحبةِ صمتِه مثل بركةِ مياهٍ راكدةٍ ؛ مترفعٌ يرضيه دوماً أن يكونَ مشاهداً فقط . يخشى أن يخوضَ غمارَ الحياةِ . متحفظٌ يفضلُ ألَّا يقحمَ نفسَه في أي أمرٍ ؛ مخافةَ أن يضيعَ وقارُه ، لا يعترفُ بأن الحياةَ يظفرُ بها من يخوضُ غِمارَها . رُغمَ كلِ سنين العمرِ التي قضاها مشاهدًا في صحبةِ الصمتِ ، لم يفكرْ أن يخوضَها ويشقَ أمواجَها ولو مرة واحدة ، مقتنعاً أن في ابتعادِه نجاةً لنفسِه . مع صمتِه المعتادِ يهوى السيرَ في طرقاتٍ تتوشحُ سواداً إلا من أضواءٍ خافتةٍ قد انعكست على مياهٍ افترشت أرضيتُها في الليالي المطيرةِ ، يستحثُ الوقتَ المتثائبَ ، يركبُ صهوةَ الخطى العرجاءِ. في بيتِه يختبئ في حِضنِ فراشِه الباردِ ، تركضُ أفكارُه في رأسِه ركضَ الخيلِ يهشُها حديثُ نفسِه بعصاتِه الغليظةِ . ينتفضُ ليخرسَ الحديثَ فتسكنَ الأفكارُ. بابتسامتِه البلهاءِ يعانقُ الصمتَ . يكتفي بمشاهدةِ الحياةِ من على ضفافِها . يمدُ يدَه ليرفعَ صوتَ المذياعِ ، تعودُ شفتاه تلهو بكلماتِ تلك الأغنيةِ الكلاسيكيةِ . تأنسُ روحُه لأنغامِها العذبةِ . تفترُ شفتاه عن ابتسامةٍ بلهاءِ ، وإذ فجأةً ينقطعُ التيارُ الكهربي ؛ يحتضن الظلامَ الصمتُ . يلتقطُ وحيد عودَه يضمُه إلى صدرِه يعزفُ بريشتِه على الأوتارِ ؛ يغني :

لم أجد في الأفقِ نجمًا واحدًا .. يرنو إليَّ .

هل تُرى يا ليلُ أحظى منكَ .. بالعطفِ عليَّ .

26- يوم قابلت نجلاء فتحي

ما أن دقت الساعة السادسة صباحا حتى هرعت أسرع في أداء طقوسي اليومية استعدادا للذهاب للعمل . فقد وصلني بالأمس إخطار بالندب في إحدى مدارس قرى ضواحي مدينتي الساحلية ، ولزاما علي أن أسرع كي أتمكن من الوصول مع بداية اليوم ؛ ركبت إلى محطة مصر، وهناك لم أستغرق سوى دقائق حتى عثرت على الميكروباص الخاص بهذه القرية . مضت دقائق حتى بدأ

التحرك ، وعلى الطريق الدائري يدلف بنا السائق بعد نهاية الكوبري ليستلم طريقا ضيقة يعلو جانبيها ركام ردم من مخلفات أبنية مهدمة ينبت من خلاله البوص . تعج الطريق بكلاب ضالة منها الأجرب ومنها من سلم من الجرب ، وإذ فجأة تطرق فتحات أنفي بعنف وبغير استئذان رائحة نتن لا تطاق . ألتفت حولي ؛ فترصد عيني لافتة مكتوب عليها (مصنع السماد العضوي) ؛ توالت الدعوات على لساني أن يسرع السائق حتى تختفي تلك الروائح النتنة ، ولما انقضت الدقائق بدأت الرائحة تخف فاستلم السائق طريقا مزدوجة بالكاد تستوعب سيارتين متقابلتين إن سهيت وأسندت ذراعك على حافة النافذة تصدمها السيارة المقابلة . عن يمين الطريق أرض زراعية وعن يسارها مصرف ، ومن محاسن تلك الطريق أنك تداوم فيها على نطق الشهادة ، وفي نهايتها تدلف السيارة بنا إلى طريق تتسع قليلا على جانبيها حقول تليها خرابات ثم بيوت تحتها مقاهي ومحلات من كل صنف . قد حفر أوسطها من أجل تركيب مواسير الغاز بغية تطوير القرية ، ولكنهم بعد أن ردموها تجاهلوا رصفها مما يجعل أحشاءك لا تستقر في مكانها لاهتزازات الميكروباص، وعندما وصلت غادرت الميكروباص أتحسس جسدي لأتأكد أن كل أعضائي في مكانها مستقرة ، وعلى يمين الطريق مصرف متاخم لسور المدرسة التي انتدبت لها لسد العجز في المعلمين بعد توقف التعيين لسنوات طويلة والزيادة السكانية التي أدت إلى كثافة التلاميذ . في حين تقل أعداد المدرسين كل عام ، ومن الباب دخلت لأحضر الطابور الذي به حوالي ثلاثة آلاف طالب وما لا يتعدى العشرين معلما بين مدرس وإداري ، وانصرفنا للفصول للعمل - بنى ومناول - تتنقل من فصل لفصل كل حصة لسد العجز، ويضرب جرس الفسحة فلم أغادر الطابق العلوي الذي كنت فيه ؛ مخافة أن يسقط تلميذ ، وفي الفناء يلهو الثلاثة آلاف فيعلو الغبار؛ يحجب الرؤية فترى التلاميذ كأنهم أشباح بين الضباب ، وإذا بعيني تسقط على تلميذ يضع كيس شيبسي فارغ في كفه ويمسك بفأر ميت من ذيله يطارد به أقرانه . بح صوتي وأنا أناديه لأنهاه عن ذلك فمن يسمعني ؟ هرولت لأسفل فإذا بالسيرك الذي نصبه قد انفض وذاب في طوفان التلاميذ ، وكانت عن يساري الحنفيات التي لا تزيد عن عشر حنفيات لا أكثر لهذا الجيش العرمرم من التلاميذ ، وقد أخذ بعضهم يثقب زجاجته البلاستيكية ليستخدمها كمدفع مياه في وجه أقرانه. بينما يفتح بعضهم أغطية زجاجاتهم ليرش بالماء من يرشه. انتهى وقت الفسحة بحمد الله دون حوادث ، وعلى السلالم تصعد التلاميذ منهكين فمنهم من يلوك طعامه ببطء ، ومنهم من يلتهم بقية كيس الشيبسي بنهم وشراهة ، ويمسح فمه بكفه أو كم قميصه ، وفي الفصول هذه المرة رائحة مصنع السماد العضوي تعود مضاعفة ، وسرعان ما أدركت السر ؛ فأغلب التلاميذ ينزعون أحذيتهم مكتفين بالجوارب التي امتزج عرق القدم فيها بماء الحنفيات مع ارتفاع الحرارة فإذا بي قد

عدت لأشم رائحة مصنع السماد العضوي ، وفي نهاية اليوم نصطف جميعا لضمان خروج التلاميذ في سلام فقابلت معلمة خائرة القوى فقلت لها :

- تخيلي . أول يوم لي في الندب واشتغلت أربع حصص متتالية في نفس الفصل .

فأجابتني بصوت بح بالكاد تبينته :

- يا بختك . فصل واحد . أنا قضيت اليوم مع فصلين . أشرح هنا شوية وأجري على الفصل الثاني أشرح شوية . مش باين عليا ؟

فإذا بتلميذ صغير ينزل السلالم بالجورب دون حذاء . على ما يبدو أنه ممن خلعوا حذاءهم من بعد الفسحة ، وقد نساه في الفصل عند الانصراف ؛ فناديت مشرف اليوم لأنبهه ، وقد كان واقفا يتابع انصراف التلاميذ وفوقه بانر كبير فيه صورة العالم المصري أحمد زويل مكتوب تحت الصورة « رسالتنا صناعة جيل قادر على التفكير والإبداع » .

أما عن نجلاء فتحي فهو اسم المعلمة التي كانت تشرح لفصلين في آن واحد .

---

27 - حديث المدينة

على رأسِ الجسرِ الذي يقطعُ المصرفَ ليربطَ الطريقَ الوحيدةَ ببعضِها مضى كثيرٌ من الوقتِ ؛ ينتظرُ الأستاذ صابر أيةَ سيارةٍ تقلُه للمدينةِ ؛ فليس ثمةَ سبيلٍ آخرٍ يعيدُه للمدينةِ سوى تلك الطريقِ الممتدةِ عبرَ الزراعاتِ يخرجُ لها قاطنو تلك القرى المتناثرةِ على حافةِ الطريقِ ليركبوا ميكروباص يوصلُهم للمدينةِ . يصلُ الميكروباص يندفعُ الجميعُ ليفوزَ بأي كرسيٍ شاغرٍ . تصادف وقوفُ الميكروباص أمامَه لينالَ ثمرةَ صبرِه - كرسي شاغر في أخر الميكروباص - وما أن وضع قدمَه حتى انطلق السائقُ كاد أن يقعَ فوقَ الركابِ ؛ تلقفتُه أياديهم قبلَ أن يسقطَ ؛ يشكرُهم ، ويجلسُ قابعًا في الكرسي . يناولُ من أمامَه الأجرةَ لتصلَ للسائقِ المشغولِ عن الطريقِ بمفتاحِ الراديو ؛ تنسابُ لمسامعِه كلماتٌ من مقدمِ البرنامجِ :

- ومعنا فضيلةُ الشيخِ ليجيبَ على سؤالِ المستمعِ الكريمِ

فيعلو في أذنيه صوتُ من بجوارِه متحدثًا :

- يا باشا لا أحدَ يستطيعُ خداعي . لقد استطعت أن أجعله يوقعُ العقدَ دونَ أن ينتبهَ للشرطِ الجزائي . نعم فعلاً هو يتصلُ بي منذ الأمسِ وأنا لا أردُّ عليه .

يديرُ رأسَه للنافذةِ فيلمحُ دموعًا حارقةً في عينِ فتاةٍ على قدرٍ من الجمالِ تهمسُ في هاتفِها ؛ يدفعُه فضولُه فيرهفُ السمعَ لتتضحَ بعضُ كلماتِها :

- أرجوك امسح الصورَ من على تليفونك . هل ذلك جزاءُ ثقتي فيك . إن أصريت على طلبِك هذا سوف أنتحرُ .

يلطمُ أذنيه صوتُ امرأةٍ :

- العِيش في الفريزر والفاصوليا عندك سخنيها حتى أعودَ من شركةِ الكهرباءِ . صوتُك بيقطع قفي في مكانٍ فيه شبكةٌ . لأ طبعًا . الفاتورةُ بثلاثمائةٍ وسبعين جنيهًا .

يخالطُ صوتَ المرأةِ صوتٌ من تجاورُها وتحملُ على حجرِها رضيعًا :

- حرارتُه ثمانٍ وثلاثون ولا تنخفضُ . ربنا يسهلُ . إن جاع الأولادُ غديهم .

تتحدثُ إحداهن لمن تجاورُها :

- اشتريت البيضتين بعشرة جنيهاتٍ .
- ربنا يرحمنا .

أحدُ الركابِ بغضبٍ :

- باقي الحساب يا أسطى .
- يا عم شوية صبر . لا يوجد فكة .

يكادُ السائقُ يصطدمُ بسيارةٍ مقابلةٍ ؛ ينبعثُ صوتُ إحداهن في الكرسي الأمامي :

- انتبه لطريقِك .
- هو سواقٌ أعمى .

يرنُ هاتفُه ، وبصوتٍ جادٍ يجيبُ :

- أيوة نزل النهاردة .. عارف والله عارف .

تثورُ الألسنةُ تتقاذفُ منها الكلماتُ :

- ونرجو في نهايةِ برنامجِنا أن نكونَ قد وُفقنا في إجابةِ أسئلةِ المستمعين الكرامِ . والله لأنتحر . على أن نلتقيَ في نفسِ الموعدِ . الكشفُ في مستشفى الحكومةِ أرخصُ لا تقلق . نتركُكم في رعايةِ اللهِ وحفظِه . نجيب منين كل هذا المبلغِ سأطلبُ منهم تقسيطَ فاتورةِ الكهرباءِ . مستمعينا الكرامَ . الفاصوليا باظت . وحتى نلتقيَ . أعلى ما في خيلِه يركبه . سيدفعُ الشرطَ الجزائي ؛ القانونُ لا يحمي المغفلين يا باشا . لا نقولُ وداعًا . الكيلو وصل لأربعين جنيهًا نجيب منين . بل نقولُ . عندَ أولِ ماكينةِ سأصرفُه . حاضر.. حاضر... والسلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاته .

يعلو صوتُ الراكبِ :

- الباقي يا أسطى .
- يا عم فلقتنا بالباقي بتاعك . (يقولُها السائقُ بغضبٍ وقد استدار برأسِه للراكبِ)

تصرخُ المرأةُ في الكرسي الأمامي :

- خد بالك ..

على الأسفلتِ تتطايرُ صفحاتُ الجرائدِ والملاءاتُ المخضبةُ بالدماءِ التي تسيلُ على الأسفلتِ . تصطفُ عرباتُ الإسعافِ . يتناثرُ رجالُ الشرطةِ على الطريقِ يوجهون السياراتِ ، ومن نوافذِها تمتدُ الأيادي بالهواتفِ تصورُ . وما أن توقف الميكروباص في محطةِ وصولِه تحت الكوبري حتى انطلقت الأقدامُ كلاً في سبيلِها تسعى، وذابت الوجوهُ في خضمِ المدينةِ ذوبانَ المِلحِ في الماءِ . يذوبُ معهم صابرًا.

28- فرسان ودروع

فوق الجسر يمر الفارس في دروعه الحديدية على صهوة جواده ، وأقفال معلقة تتراكم على جنبات الجسر المعدنية رسمت عليها قلوب حمراء وحروف أجنبية ، وقطع معدنية تتساقط في البئر تحتضنها أمانٍ عبثية ، وماء في العلا يرتعد خوفا يتشبث بالغيوم لا يريد أن يصير مطرا ، وماء تحت الجسر

أهوج يعلو في تهور ثائرا ، والمدينة جاثية على ركبتيها مثل الأم دولاجي ينحرون صغارها أمامها تنتظر دورها في الذبح صابرة . يبحث الفارس عن أعشاش الطيور بعد أن ثارت الريح فاقتلعت الأشجار. يتلمس النور بعد أن اشتدت العواصف فأطفأت في السماء النجوم . الفارس يرتدي دروع فرسان العصور الوسطى الحديدية لا لتحميه من ضربات السيوف وطعنات الرماح ولكن لترهب الأعداء وتقذف في قلوبهم الخوف . يمضي في ساحات الشرف يحارب لا تهزمه الجيوش ولا تقتله طعنات الأعداء بل تصرعه آلامه التي تخفيها دروعه الحديدية . تحتها يتمزق جلده . يخفي آلام جسده المثقل بالأوجاع بينما هو فوق الفرس رافع الرأس شاهر السيف يعبر أقواس النصر . يبعث مظهره على القسوة وبث الرهبة بينما في داخل الدرع الحديدي جلود تتآكل وجروح تنزف لا يعلم بها غيره ، يضرب العفن في الجسد الذي يتآكل تحت حديد الدروع . لكنها حياة الفرسان يمضون إلى الحروب تحت دروع قاسية تخفي آلامهم وأوجاعهم إلى أن يسقطوا فجأة في ساحات الشرف والعزة . لا بطعنة رمح سقطوا وإنما هزمتهم آلامهم وذلك العفن الذي يزحف على العقول .كان الفارس يتمنى أن يظل طفلا يلهو بالحياة .كان يود أن تحتضن أشعة الشمس الأرض ، وأن يقبل ضوء القمر صفحة البحر فترفع الجبال رأسها إلى عنان السماء . فقط كان يحلم أن يتحرك الحرف الساكن ؛ فتعزف اللغة جملا موسيقية للسلام . بالقرب من الجسر وجدوا جثته مثل رسالة مطوية في زجاجة أغلق فمها بالفلين لفظتها أمواج البحر . ما من أحد يستطيع أن يقول من ألقاها . لم يتعرف عليه أحد . من الذي بتر أصابعه ؟ من فقأ عينيه ؟ من ذا الذي قطع لسانه ؟ وماذا فعل ليستحق تلك النهاية ؟

29- لقاء

ذات مساء وكنت جالسا على رصيف المقهى بناصية الشارع الرئيس ، وبينما ينشغل صديقي بتصوير أثر بعد عين ، وقد أصابته الحسرة لهدم تراث ومحو هوية ثقافية بلا شفقة أو هوادة ، إذا بصبي يافع على أول الحارة الجانبية يتبادل التحية مع قرينه ، يلفهما حديث سريع الإيقاع يظلله رنين الضحكات ، في حين يقف اثنان في الحارة يوشكان أن يتلاصقا غير عابئين بمن يتحدثان ، ولا مكترثين بنظراتي إليهما ، ينساب إلى مسامعي همس صوتيهما ، أختلس النظر ؛ فتبدو لي رغبتهما الحميمة مشتعلة . يقتربان بجسديهما أكثر وأكثر . يدفعهما الشبق إلى تجاهل كل ما يحيط بهما ، وإذا بأحدهما فجأة يرفع إحدى رجليه ليبول على إطار سيارة متوقفة بجوار الرصيف ، بينما تتابعه هي غير مبالية بفعلته ، تلصق أنفها بأنفه يهز كل منهما ذيله بشدة ، فيشد أحد الصبية طوق رقبتها لينصرف

بها بعد أن ودّع صديقه والذي أمسك بطوق رقبة الآخر لينصرف به في الاتجاه العكسي ، تعلو وجهي الابتسامة فيسألني صديقي :

- علام تبتسم ؟

- على لقاء لم يتم .

30- مجرد مشهد

والدموع تنهمر على خديها من مآقيها منحدرة لا تزيدها إلا جمالا على جمالها يجعلها أكثر فتنة فتلهث العيون تكشر عن أنيابها طمعا في جسد بض يفوق الوجه روعة وبهاء وبصوت متهدج تجيب :

- أنتظر ابني الصغير

يصفعها صوت فظ

- ممنوع الانتظار هنا . بره من فضلك

الوقت مازال مبكرا والجو بارد . تخلو الطرقات من مظاهر الحياة . تجرها الطريق المبللة بماء المطر لتمشي وحيدة فيها بين الزراعات المترامية مما يزيد من قسوة الطريق وقلة الحيلة فإذا بالطريق تنشق عن فقير عقل دميم لسان يسمعها أقذع الكلمات بلا حياء . متطفلا يسألها :

- ما جاء بك هنا ؟

بأهداب بللتها الدموع .

- كنت أسكن هنا والآن أسكن في أقصى غرب المدينة لذلك أنتظر ابني .

يرتدي الذئب فروة الخروف :

- ولماذا تسكنين بعيدا ؟

شعرت لوهلة بالاطمئنان للحديث معه فضلا لحاجتها لقتل الوقت الرهيب فأجابته :

- بعد طلاقي اضطررت للسكن في أقصى غرب المدينة فحالتي المادية لا تسمح بأكثر من ذلك

يسيل لعابه يعد شباكه ليلقيها على الفريسة المنهكة

- محتاجة فلوس؟
- أشكرك . معي ما يسمح بعودتي مع ابني
- مازال الوقت مبكرا والجو بارد تعالي معي لترتاحي عندي تلك الساعات في دكاني القريب من هنا.
- وماذا تبيع ؟

بابتسامة ماكرة يجيب :

- لانجيري

وأمام الدكان :

- وهل لديك بضاعة جيدة ؟
- اتفضلي بضاعتي مفتحة من كل حتة

وفي الداخل يفصح عن نواياه فتجاريه وتطلب منه أن يخلع سرواله وما تحته على أن تنال مائتي جنيه أولا وفي لمح البصر خلع الذئب فروة الخروف لا يستره شيء . تتظاهر بأنها ستخلع ملابسها فتخطف ملابسه وتندفع للخارج تاركة إياه عاريا لا يملك شيئا يستر به نفسه سوى الجورب والبضاعة المفتحة من كل حتة .

31- أسير الحرف

ينغلق على نفسه في حجرته طيلة الشتاء لكي يكتب قصائده . يمر بتجارب مريرة . يعتلى الهاوية يكاد أن يسقط فيها . يعيش العدمية أو ربما يتسكع في المدينة يشرد طيلة الفصول ، وأمام البحر يصرخ في صمته الجاثم على صدره . يدخل دائرته المغلقة التي تربط بين إبداعه والحياة . يضع في قصائده كل حنانه وحقده . يتجاوز حدود التمرد في تعرية الواقع القاتم . في أشعاره اعترافات يبثها من خلال آلامه ومعاناته وصراعاته مع ذاته والعالم من حوله . بين الحين والآخر يخرج من نفسه ليستريح قليلاً منها . يعجب بالحرف أحياناً ، ويكرهه أحياناً أخرى . في ليله ونهاره يتقلب مناخ حاله حسب الفصول . يجلد نفسه يعذبها لشعور بالخطيئة والذنب لا يفارقه . روحه حبيسة قمقم

نحاسي . تتراقص الخمر في القوارير أمامه فيلثم وجنتيها في كؤوس صماء تنقله إلى عالم غير المعتاد ليهرب من واقعه ونفسه فهي وحدها قادرة أن تشعره بالنشوة فيتوهم أنه صار أكثر قوة وابتهاجا . تنتهي معركته مع نفسه بهزيمته فهو المدان منذ الأزل . هو من اختار أن يكون للحرف أسيرا . حيث ابتدأ بالتحليق في السماء اللازوردية وبين السحابات البيضاء ، فانتهى به المطاف بالهزيمة أمام الحياة والزمن . إلى الحضيض والهاوية يسقط مدحورا . يضحكون من قصيدته حتى ينقلبوا على قفاهم ؛ يسألونه :

- كم تساوي ؟

بكبرياء واهن يجيب :

- الإبداع لا يقدر بمال .

في عنجهية وتعالٍ بلسان حاد النصل :

- ما قصدنا الإبداع . أنت كم تساوي؟

---

32 - ترياق الشهر

في كانون الذي طال بقاؤه وتحت سمائه الداكنة ، وفي طرقاته الموحلة . يعدو جاهدا ؛ يحاول تفادي الأغصان الحادة المتشابكة التي تتزايد بشدة ؛ رافعا أكف الضراعة أن ينجو من كلاليبها ؛ كي لا تمزق ثيابه الرثة التي كاد طول العهد يبليها ؛ فيفقد ما تبقى من الستر. يصل في نهاية الطريق المعتادة للبئر يفتر ثغره ؛ فاليوم سينال ترياقه فيضمن أن يعيد الكرة كل شهر دون أن يفقد ورقة التوت فيتعرى في تلك الأجواء القارصة البرودة ؛ فتمزقه نظرات شامتة تترقب من يقع فلا ينال سوى الخذلان ، وفي تلك المرة جاء الخذلان من البئر ذاتها ؛ فقد وجدها جافة لا قطرة فيها تقيم الرمق ، وحولها نظرائه قد تعرت أجسادهم وخارت قواهم ؛ فترتعد أوصالهم حول البئر ينتظرون أن تنبع بالترياق . خذلتهم البئر وطال الانتظار المقيت ؛ تلهث الألسنة ضارعة بدعاء درويش الإسكندرية (هز الهلال يا سيد) يجهل المنطق سبب تأخر الترياق في حين تبتسم نظرات الشماتة الجاحظة كلما تعرت الأجساد . يمد كل منهم يده لنظيره بجرعة صبر في مرارة الحنظل فتزيد الحلق تشققا وجفافا ، ورغم ذلك يجهدون لينعموا؛ فقد استطاعوا بعد عناء أن يجتازوا الطريق المعتادة شهريا للبئر ، وعليهم أن يتجرعوا الصبر؛ لينالوا ترياقهم ، وإذ فجأة يمد

أحدهم أصابعه المرتعدة ؛ يضغط الزر فيعلو صوت ماكينة البئر فينال أولهم الترياق . تعلو الأصوات ؛ يتزاحمون ؛ يتضاربون ؛ تسيل الدماء تمتزج بالترياق المتناثر فوق أجساد لم تتحمل ففارقت الحياء والحياة .

33- سليم وعبد العليم

الأستاذ سليم لن يحكي لنا قصته بنفسه لكن الأحداث هي التي ستروي لنا ما حدث لسليم مع رفيقه عبد العليم .

ذات يوم يدخل عم ربيع المكتب فجأة وينادي :

- يا أستاذ سليم .. يا أستاذ سليم .. سيادة المدير يريدك الآن
- خير يا أستاذ سليم
- علمي علمك يا مدام نرجس

ينطلق سليم وراء عم ربيع الذي يدق الباب ويفتحه ليدخل سليم على المدير وبعد برهة من الوقت يخرج سليم بوجه جامد لا يشف عن حزن أو سعادة وتحت إبطه ملف أصفر .

- لعله خير يا سليم
- مأمورية غدا إلى سعادة مدير مكتب معالي الوزير

- عليك وعلى فالنتينو الحلاق ؛ يضبطك

- على ضمانتك يا عبد العليم

- أنا عمري قولتلك حاجة وطلعت غلط

يذهب سليم لـ " فالنتينو " الحلاق وما أن وصل للحلاق

- منور يا أستاذنا عندي لك صبغة شعر أوريجينال ، واللون الكستنائي يليق عليك

- أستاذ عبد العليم يمدح فيك كثيرا .

وما أن جلس سليم على الكرسي وبدأ فالنتينو في تدليك فروة الرأس حتى دخل في النوم كعادته التي لا يعرف علاجاً لها فمنذ طفولته ما أن يجلس تحت يد الحلاق حتي يغط في النوم

- تمام يا أستاذنا نغسل الشعر ونرى النتيجة

وما أن انتهى فالنتينو من غسيل شعر سليم حتى نزل عليه الصمت وكأن على رأسه الطير وأمام المرآة تجحظ عينا سليم لهول المفاجأة

- ما هذا ؟! شعر أحمر .

بصوت مضطرب وابتسامة صفراء باهتة يقول فالنتينو

- اللون الأحمر جميل عليك

- أنت مجنون .. غدا عندي موعد رسمي . أدخل على مدير مكتب الوزير بشعر أحمر . خلصني من تلك المصيبة

- الحل الوحيد نحلق الشعر الوحيد كله .

- احلق بسرعة احلق .

يبدأ فالنتينو بقص الشعر بالماكينة وما أن أزال الجزء الأمامي من شعر الرأس حتى جحظت عيناه ، وبصوت مرتعش يسأل :

- أستاذنا هو لون جلد راسك أخضر ؟!

عبد العليم بجوار سليم في المستشفى :

- حمدا لله على السلامة يا سليم يا خويا

- أرأيت ما حدث لي يا عبد العليم؟

- قدر ولطف يا سليم

- الجو نار يا عبد العليم

- أنت في حاجة لرحلة تروق أعصابك

وبعد تمام الشفاء تمر أيام ويعود سليم للعمل ، مدام نرجس بصوت هادئ :

- الشركة عاملة رحلة للساحل يوم واحد

- متى ؟

- الجمعة القادمة يا أستاذ سليم التفاصيل في الإعلان

- فرصة يا عبد العليم ؛ ناخد الأولاد ونصيف يوم في الساحل

- غالية يا سليم يا خويا . فتحي ابن خالتي يعمل رحلة اليوم الواحد بنصف الثمن

- لكن الشركة ستنقلنا في أتوبيس مكيف ونقيم في قرية سياحية شامل وجبة الإفطار .

- رحلات فتحي ابن خالتي بنصف الثمن وكل الكماليات اسمع مني

- طلعت معاه قبل كده يا عبد العليم

- أنا عمري قولتلك حاجة وطلعت غلط

- إذا خذ احجزلي لخمسة أفراد

وفي يوم الجمعة خرج الأستاذ سليم وأسرته لمكان التجمع حتى وجد أتوبيس فاخراً جداً فارتسمت على وجهه علامات الفرحة

- ألم أقل لكم عبد العليم عمره ما يقول حاجة وتطلع غلط

وفجأة تنشق الأرض عن عبد العليم وأسرته تملأ وجهه السعادة

- يا أستاذ سليم تعالى الاتوبيس على الرصيف الآخر .

وما أن رأى سليم الأتوبيس

- هل هذا الأتوبيس سيوصلنا الساحل ؟!!

- لا تهتم بالشكل إنه صاروخ على الأسفلت .

- هل سافرت به قبل ذلك يا عبد العليم

- أنا عمري قولتلك حاجة وطلعت غلط .

وما أن تحرك الأتوبيس حتى صار كالفرن والجميع يتصبب عرقا

- نتحمل قليلا يا أولاد . عندما نصل نصيف ونبلبط في البحر

وبينما الأتوبيس في طريقه والرمال على جانبي الطريق تشرق الشمس فتزداد حرارة الأتوبيس وإذ فجأة جلبة وأصوات ويتوقف الأتوبيس في الرمال إلى جانب الطريق وقد صارت الشمس في كبد السماء

- انزلوا يا جماعة الأتوبيس تعطل وسنصلحه حالا

- هل يستغرق الإصلاح وقتا كثيرا يا فتحي ؟

- ادع الله يا عبد العليم

يتوجه عبد العليم لأسرة سليم مبتسما :

- لا تقلق يا سليم يا خويا حالا يصلحونه ونصل للساحل ونبلبط في البحر

- أمرنا لله يا عبد العليم

ويمر الوقت وتشتد حرارة الصحراء الجميع يفترش رمال الطريق يستظل بالشماسي يتصبب عرقا وقبيل الغروب تعود الحياة للأتوبيس فيشق صوت فتحي سكون الصحراء

- آسف يا جماعة سنعود لبيوتنا فاليوم انتهى

وفي طريق العودة يخرج سليم رأسه من نافذة الأتوبيس يتلمس الهواء فإذا بسيارة فارهة تمر من أمامه يبرز من نافذتها الخلفية كلب يتدلى لسانه من فمه

- ما بك يا سليم يا خويا

- أتعرف يا عبد العليم . إن هذا الكلب ذهب للساحل وبلبط في البحر ويخرج لي لسانه ليغيظني .

تمر الأيام وتنجح مدام نرجس في الصلح بين سليم وعبد العليم لقرب شهر رمضان المبارك ولا تصح القطيعة بين سليم وعبد العليم ، وذات يوم ينتاب سليم الركود ؛ يشعر بالتعب ربما كان من أثر الصيام ولكن غدا وقفة العيد ، وعبد العليم تغيب عن العمل اليوم ؛ يتصل عليه سليم ليطمئن على حاله :

- ألو يا عبد العليم لم غبت اليوم ؟

- وما سبب دخولك المستشفى ؟

- حمد لله على سلامتك . سأمر عليك بعد انتهاء العمل .

وما أن انتهى سليم من عمله حتى اتصل على زوجته

- سأتأخر قليلا ؛ أزور عبد العليم ،كان في المستشفى

- حاضر لن أنسى الكعك والبسكويت

- مع السلامة

وما أن وصل سليم بيت عبد العليم حتى وجده في سريره يبدو عليه الإجهاد الشديد رغم الابتسامة التي لا تغادر وجهه

- ألف سلامة عليك .. طمني

- وعكة بسيطة .. الحمد لله

- تدخل المستشفى وتقول وعكة بسيطة

- بعد صلاة التراويح قررت الاسترخاء قليلا فحدث ما حدث وربنا ستر والحمد لله

- انتبه لنفسك يا عبد العليم إننا نكبر ولا نصغر

- أنا بخير ، وصحتي بومب

- حمد لله على سلامتك يا عبد العليم

وتدور بينهما أحاديث هامسة تنحدر إلى الهزار فتتعالى ضحكاتهما . و يعطي عبدالعليم لسليم هدية .

- إنها مستوردة يا سليم يا خويا

- هل جربتها يا عبد العليم

- أنا عمري قولتلك حاجة وطلعت غلط . اسمع مني .. ستدعو لي .

عاد سليم لبيته يملؤه الزهو متخيلاً الأهداف التي سوف يحرزها في المرمى في ليلة العيد كما أكد له عبد العليم

وفي صباح العيد ، وبعد أن فرغ المصلون من صلاة العيد

- يا عبد العليم .. يا عبد العليم ..كل سنة وأنت طيب

- أخويا عزام وانت طيب عيد سعيد . أين سليم يا عزام يا ألم يحضر صلاة العيد !!

- سليم في المستشفى من أمس جاءت الإسعاف وأخذته كان في حالة إغماء .

عبد العليم مندهشا :

- يا ترى ما السبب ؟!

تمر أيام العيد ويخرج سليم من المستشفى ، يجلس سليم وعبد العليم على المقهى كالعادة فالأمسيات لا تحلو إلا بالرفقة الجميلة وبينما تتعالى ضحكاتهم إذا بمندوب مبيعات يحمل حقيبة سوداء كبيرة ترتسم على وجهه الابتسامة في حين يتصبب جبينه عرقا يقاطعهما ليعرض بضاعته

- معي عرض مميز شامبو وبلسم وكريم مرطب وشاور جيل . كل هذا بنصف التمن فقط ؛ شركتنا تقدم خصم 50% على العرض

فينطلق عبد العليم كعادته في الكلام

- عرض جميل وفرصة
- هل جربته يا عبد العليم ؟
- لا .. لكن هي فرصة فعلا ؛ عرض لا يتكرر كثيرا
- أشتري على ضمانتك يا عبد العليم
- أنا عمري قولتلك حاجة وطلعت غلط يا سليم يا خويا يقاطعهما مندوب المبيعات مبتسماً تبدو على وجهه فرحة غامرة وبابتسامة يغلفها الود :
- حضرتك لن تندم ؛ شركتنا رائدة في السوق وبضاعتنا عليها إقبال كبير لعروضها المتميزة إنها فرصة يا افندم

يتدخل عبد العليم في الكلام

- نعم يبدو أنني شاهدت إعلان شركتكم في التليفزيون

يقتنع سليم بكلام عبد العليم ويشتري العرض ويعود للبيت يشعر بزهو وفخر ويكأنه (جاب الديب من ديله) وبينما يستحم فتح إحدى العبوات ليجربها بنفسه فإذا به يكتشف أن كل العبوات تحوي

" صابون سايل " نُصب عليه واشترى التورماي ، يخرج دون استحمام يكاد ينفجر غيظاً من عبد العليم ، تسأله زوجته :

- ماذا تفعل عند حوض المطبخ يا سليم ؟
- أغسل المواعين .

في اليوم التالي يلقي عبد العليم السلام على سليم الذي يكاد ينفجر من الغيظ

- من فضلك يا عبد العليم اتركني
- لماذا ؟!
- العبوات كلها صابون سايل
- ربنا يعوض عليك يا سليم يا خويا
- أين مدام نرجس ؟
- ألا تعرف إنها في المستشفى ستجري عملية الغضروف
- ربنا يشفيها
- لابد أن نزورها
- ولكنني حجزت تذاكر السفر
- إلى أين ؟
- سأسافر مع أسرتي إلى بلدتي وفرصة نزور آثار الأقصر ونؤجر بالون ونعيش يومين وإن سمحت الظروف سنركب باخرة ونقضي يومين في أسوان
- ومتى السفر ؟
- غدا بمشيئة الله
- إذن نزور مدام نرجس اليوم بعد نهاية العمل
- كنت أتمنى أن أزورها لكن لابد أن أجهز نفسي للسفر
- كلها نصف ساعة نعمل فيها الواجب
- دخول المستشفيات صعب الآن خصوصاً مع انتشار الكورونا

- أنا سأتصرف يا سليم أنا أعرف كل دهاليز المستشفى
- لا نريد أن نتعرض للإحراج يا عبد العليم
- أنا عمري قولتلك حاجة وطلعت غلط

وفي المستشفى سار عبد العليم في ممرات المستشفى خلسة يتبعه سليم يدخل عبد العليم من باب ويخرج من باب وسليم وراءه يسير مسلوب الإرادة وما إن وجد باباً عليه لافتة

- يا عبد العليم اللافتة تقول ممنوع الدخول نهائياً لغير الأطباء وهيئة التمريض
- هذا مجرد كلام حتى لا يستخدم أحد غيرهم تلك المسالك المختصرة .

يفتح عبد العليم الباب عنوة يتبعه سليم . المكان يسوده الصمت وما إن وصلوا للباب الأخر حتى وجدوه مغلقا بقفل ولا يمكن فتحه . مضى وقت طويل يبحث فيه عبد العليم عن وسيلة يفتح بها الباب

- لابد أن نعود يا عبد العليم
- معك حق . اتبعني أنا أعرف طريقا آخر

وما أن وصلوا للباب حتى قابلهم شخص في ملابس صفراء مثل رواد الفضاء بدهشة يكلمهما :

- من أنتما ؟ وماذا تفعلا هنا ؟
- دخلنا بالخطأ وكنا خارجين حالاً
- هذا عنبر عزل حالات الكورونا

سليم واجما من هول المفاجأة :

- ألم أقل لك يا عبد العليم اللافتة تقول ممنوع الدخول
- من فضلك أفسح لنا نريد الخروج
- أنتما لن تخرجا إلا بعد حجزكما أربعة عشر يوما
- والرحلة يا عبد العليم
- ربنا يعوض عليك يا سليم يا خويا .

في حجرة العزل ينادي عبد العليم على سليم :

- يا سليم هل سمعت عن القرض الذي تقدمه النقابة للموظفين . يا سليم .. يا سليم .. هل تسمعني؟

سليم زاعقا :

- كفاية يا عبد العليم . كفاية . ارحمني .

---

34 - مسك و بصل

يبدو العالم له رخوا مترهلا . يشعر برائحة نتن زاكم تخالطه أدخنة الفراغ المقيت يخترق خياشيمه تلح عليه الرغبة في تسلية ما ربما تزيل شعوره بالاغتراب . تلك الجدران الأربعة ليس بينها هواء . كل شيء على الجدران الأربعة حوله جاف خانق . ترقد بجانبه كتب في أكفان عالمه المهترئ . ما أحوجه إلى حجر ثقيل يلقى في الماء الراكد ؛ يبسط كفه يفرد ذراعه يلقيها في الفراغ ليصفع الزمان فيغير مسيره . يقوم مفككا يدوس بأقدام حافية أوراقا قد ألقاها أرضا ؛ فتعلو خشخشتها التي لم تسطع وطأة أقدامه العارية أن تكتم صوتها . ينتعل حذاءه ناسيا جوربيه ، وعلى المقهى يجلس على كرسي في واجهة الطريق ؛ ربما في حركة الشارع ما يبدد إحساسه بالفراغ ، ولكن سرعان ما أدار وجهه عن الشارع ؛ فقد سئم حركاته السخيفة . يدخن سيجارته ببطء يرتشف قهوته في تكاسل وقد وضع رجلا على رجل ، وعلى شاشة التلفاز تطارد مسامعه كلمات لا تكاد تمسك بإحداها حتى تفر أغلبها إلى جحور الفراغ ؛ تعود عيناه للشارع تلتقط حركات النساء لعلها تزيح الملل الجاثم على صدره ولا يرحل . وإذ فجأة تنبعث رائحة المسك تعبق المكان تصحب أنفه عيناه بحثا عن المسك وما أن عثر عليه حتى دبت الحياة في عروقه ؛ فينهض ليصافحه . فإذا بنداء ينعق بصوت قبيح يخيم على الأجواء :

- يا بصل

تهرول الأقدام تتشابك ، وتختلط الأذرع حول بائع البصل . يبحث بائع المسك عن عطره فيدرك أن عطر المسك ضاع في سوق البصل .

35- أوركسترا

في شوارع المدينة العتيقة تنبعث نغمة الناي يائسة متوسلة ؛ صارت الأماني افتراضية في عوالم قاحلة سقطت عنها أخر أوراقها . أجساد تعرت أياديها خاوية . وقع أقدام ثقيلة تنوء بما تحمل من أوجاعها . كل الوجوه شاحبة لا تجف عيونها ، وضربات قلبها واهنة . لها أفواه مكبلة مكتومة صرخاتها . في طرقات واقعها الموحلة تسير جماعات تلو جماعات يعلوها اصفرار ذبولها . تستغيث تئن فلا مغيث ولا مجير لأناتها . لا أحد يقرأ رسائل الحمائم الزاجلة ؛ فالعقول علاها الصدأ وعميت أبصارها ؛ يسأل الإسكندر معلمه :

- عندما أبني مدينتي ماذا أفعل بها ؟

أجابه :

- ابعث الروح في ألحانها .

تتوسط مدرجات المسرح الحجرية أوركسترا تعزف أنغاما أخرى تحيي الأجساد تستجيب لها أرواحها . تبدأ النغمات بدقات مكتومة من الطبول تتبعها الآلات النحاسية و الوترية عازفة . تعلو النغمات سريعة متلاحقة ، وكلما تقدم اللحن تزول نغمة الناي اليائسة المتوسلة . في الطرقات تتبع الجماعات بعضها بعضا في حال زاهية ؛ ارتد البصر للعيون وزال الصدأ عن عقولها ؛ تنفض رسائل الزاجل تنفك شفراتها ؛ لتعلن نبوءة النصر .

36- أوبرا حمزة

وأخيرا أخبرته ماكينة الصرف أن راتب التقاعد قد صار متاحا . إنه حمزة الذي لم يظفر بدفء الأسرة يوما . وفي مثل ذلك اليوم شهريا يقرر التجول في المدينة . يتسكع في الطرقات واضعا كفيه في جيب سرواله قابضا على راتبه الضئيل يضم الزراعين لجسده يلتمس الدفء . يذم شفتيه يطلق صفيرا بلحن يدندن به ؛ فقد أمضى ليلا طويلا يستحث الوقت الأصم أن ينقضي . تنشق الطريق أمامه عن جمال ملحمي لثلاث نساء تبدو كل امرأة فيهن أكثر فرادة تشبه أجسادهن ثلاث نوتات موسيقية عُزفت كل واحدة منهن على آلة موسيقية مختلفة تصب موسيقاها في أذنيه بلطف تهز مشاعره الراكدة ؛ يتبعهن يستمتع بهذا التأرجح الممتع بين الصحو والنوم وكأنه في أوبرا . وما أن دخلن إلى مقهى الحي الراقي حتى دخل خلفهن . يربض على مقربة منهن يأسره انبعاث دخان

السجاير الفاخرة من بين حمرة شفايفهن المكتنزة . يمسك هاتفه يفتح الكاميرا الأمامية ينظر إلى ملامح وجهه السخيفة يحاول أن يبتسم للكاميرا ربما حلت على وجهه مسحة من الوسامة لكن لا فائدة ؛ فيزيد من ابتسامته محاولا مرة أخرة دون جدوى ؛ يكرر المحاولة تلو الأخرى حتى فتح فاه عن أخره .

بينما في القرية الناعسة تصادف مرور ذئب أضناه الجوع من تحت نافذة كوخ فسمع امرأة تصيح لصغيرها الذي يرفض الطعام :

- إن لم تأكل اللحم سألقي به من النافذة للذئب

فربض الذئب بالجوار يمني نفسه بالوجبة الألذ . انتظر الذئب وانتظر ، إلى أن عاد الصياح مرة أخرى ، فأقبل الذئب أمام النافذة ينظر إلى الأم وهو يهز ذيله في حبور .

فما كان من المرأة إلا أن أغلقت النافذة واستغاثت ، فهبت الكلاب تطارد الذئب الذي بات ليلته خاوي البطن متحسرا .

حينئذ يقهقه حمزة بضحكة بلهاء ؛ تنتفض الجميلات في فزع يبتعدن عنه يهرع إليه النادل يعاونه أحدهم يمسكان بذراعيه يدفعانه لخارج المقهى بعنف . تتراشق نظرات السخرية في ظهره العاري . صار العالم الخارجي ينسحب من حوله ؛ فيطرق باب رأسه مونولوج صامت :

- لماذا انتحرت أنا كارنينا ؟

37- البالونة

يصر " حافظ " دوما كلما غادر بيته على أن يأخذ معه الكتاب الوحيد الذي يحمل اسمه شاعرا لاسيما اليوم ؛ فقد نشرت إحدى الصفحات على الفيسبوك قصيدة من تأليفه وعليها صورته فجلس على المقهى المواجه لكورنيش البحر يفتح تلك الصفحة بحيث تبرز صورته لمن يقترب منه فيعرف أنه شاعر مشهور وبينما هو جالس في زهو وفخر إذا برجل في العقد السادس أشقر البشرة يجلس إلى جواره فيعمد حافظ إلى أن يقلب الكتاب لتظهر صورته جلية واضحة للرجل الأجنبي ، وينجح بالفعل في لفت انتباهه فيبتسم له الرجل ابتسامة رقيقة ويومئ برأسه مؤكدا رؤيته لصورة حافظ . يضع حافظ رجلا على رجل وقد انتفخت ذاته . يشير للرجل على صورته ليؤكد أنه هو نفسه صاحب القصيدة وأنه شاعر مشهور ذو مكانة أدبية مرموقة لاسيما أن الرجل فيما يبدو أجنبيا

وتبدو عليه بساطة المظهر وأكيد لا يعرف عن الحركة الأدبية الكثير . يناوله حافظ هاتفه وهو يشير لصورته ليرى الرجل صورته على بوست يفيد أنه حاصل على دكتوراه فخرية ولقب سفير للسلام وبجوار اسمه لقب دكتور باللغة الإنجليزية ؛ يعيد الرجل ابتسامته بكل تواضع ولا ينطق ببنت شفه .

تهللت أسارير حافظ ؛ فالآن قد أدرك هذا الأجنبي الساذج أنه شاعر مشهور، وعندما يعود لبلاده ويجلس مع رفاقه سيحكي لهم أنه جلس مع شاعر كبير . انطلق حافظ يتحدث عن نفسه بكلمة إنجليزية من هنا وأخرى فرنسية من هناك ؛ لم يسعفه تعليمه المتوسط كثيرا ، ولكنه يداوم على حضور ندوات الأدباء والمثقفين يسمعهم قصائده التي ينقصها الميزان الشعري وفي أبياته كسر وينصحونه بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من القدامى والمحدثين ولكنه يرى في قصائده ما لا يراه غيره ولا يفوت لقاء إلا وأصر على إلقاء شعره ، ويحب أن تناديه الناس بلقب دكتور . يعتري حافظ اليقين أن الرجل أكيد قد فهم الآن ما يقوله . يومئ الرجل برأسه مبتسما . والأنا عند حافظ تتضخم وتغلف حديثه الركيك بينما الزهو يعلو به بعيدا مثل منطاد ممتلئ بالهواء . فجأة يرن هاتف الأجنبي ليجيب بالعربية :

- نعم أنا جالس في انتظارك على المقهى .

وبينما حافظ في دهشته إذ اكتشف أن الرجل ليس أجنبيا يأتي رجل يجلس بجوار الأجنبي يملأ وجهه الابتسامة

- السلام عليكم
- وعليكم السلام . تفضل (رد الأجنبي)

ينطلق الرجل في الحديث مع رفيقه والذي يرد عليه بعربية فصحى . فإذا بالرجل يعتدل في جلسته ليستدير تجاهه مبتسما تعتريه الدهشة :

- هل أنت مصري ؟

يبتسم الرجل الآخر قائلا

- ألا تعرف الأستاذ الدكتور عبد الرحمن أبو المكارم أستاذ ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها وله عشرات الدواوين الشعرية .

فإذا بطفل يمر من أمامهم على الرصيف يلهو ببالونة وفجأة ينبعث صوت من البالونة : تسسسسسسسسس .

38- عين الرسام

في المدينة العجوز تخيم العشوائية على الشوارع ، يحفر الجهل بمخالبه غوغائية في مخيلة قاطنيها قبل عقلهم ، تضيق الأدخنة أنفاسهم ؛ يطبق الحراس على الشاردة والواردة ، يقفون فوق رؤوس ساكنيها، يولد في المدينة العجوز الأطفال شيوخا ، جنازات الأحلام لا تنقطع ، لا شيء يقبله المنطق ، رؤوس طأطأها العوز ؛ فلا تلمح في شوارعها من يرفع رأسه ، تزحف عيونهم تلاصق الأرض ، تفقأ إحداهما إن ارتفعت لترى السماء ، وتترك عين واحدة لترى ما يريدون لها أن ترى .

يجلس الرسام على رصيف مقهى ضيقة يملأها دخان يخنق الصدور ، تبكي ذاكرته " أم الضفائر " حبيبة قلبه التي فقدها يوم رآها كبير الحراس وطلبها من أبيها النحات فلم يستطع أن يرد طلبه ، وذات يوم رفع الرسام عينيه الاثنين يرنو إليها وهي تطل من نافذة قصر كبير الحراس العالي ففقد إحدى عينيه ، فجأة يقطع حبل ذاكرته صراخ معلق المباراة " هدف في الوقت بدل الضائع " ينبعث هتاف يهز المكان ، يطأطئ الرسام رأسه ينظر في لوحته بالعين الوحيدة ، ينصرف الجمع ، من له عين واحدة والأخرى مفقوءة ومن ناله الحظ ومازال يحتفظ بعينين ، صامتين تزحف عيونهم على الأرض لا تجرؤ على النظر للسماء ، ينبعث نحيب الناي بأغنية ، تتلقفها أذناه ، يتمتم بكلماتها :

- ألف الشوارع
- أتوه في المدينة
- أضيع في المواجع
- وفي دموعي الحزينة
- وفي كل الشوارع
- لا ضاعت مواجع
- ولا هديت عيون

- كيف حالك يا فنان ؟

- كما ترى بعينيك ، فقئت إحدى عيني ، أبحث عن عمل
- كن مطمئنا ؛ عندي لك عمل .
- متى ؟
- عليك أن تحضر أولا صحيفة أحوال جنائية " فيش وتشبيه " من عند الحراس .
- غدا سأذهب لعملها .
- أراك بعد أن تنتهي منها .

تمر عشرون سنة ، يتقابل الرسام مع ذي العينين وقد بات الرسام كفيفا

- أين كنت يا فنان كل تلك السنوات ؟
- في جبل المغول .
- لماذا ؟ !!

39- الكهف

في تلك البقعة الرمادية من الزمن يحتاج عبد المجيد فقط أن يطيل الوقوف ؛ ليلتقط بعضا مما نساه في رحلة إبحاره الطويلة ، لقد اعتاد أن يراقب الغيوم والنجوم ؛ فيزداد إصرارا وتصميما على الهجرة مع الطيور أيا كانت وجهتها ، يحاول أن يملك وسيلة يعبر بها من ضفة إلى أخرى ، أمنيته أن يملك قلبه و ما يشعر ؛ ليمحو لحظات غرست ما لا يحب في داخله ، لا يشتهي العبث أو الخروج عن المألوف ، كل ما في الأمر أنه يحاول أن يملك ما يجعله إنسانا من لحم ودم ، يقبع عبد المجيد في كهفه وحيدا ، يتسرب ضباب عمره الرمادي إلى روحه الهائمة كما يتسرب السم في دخان التبغ المحترق إلى دمه ، فصار مثل تمثال معدني ملت العين النظر إليه ؛ علاه صدأ السنين الرتيبة ، طالت به رحلة العمر ، فصار يكتب حروفا من نار قد تطايرت حمما من بركان صدره ؛ تحرق أنامله مثل لفافة التبغ التي لا تفارق أصبعيه ، يكتب كي يحرق ما تبقى من آلامه ، يكتب ليصبح حرا طليقا ، يكتب لنفسه فقط باحثا عما يهز مشاعره ، ويخلق كلماته ، يطلق ناظريه من تحت زجاج نظارته الطبية الثقيلة يحلقان في المكان ، فإذا بهما يحطان على غصن بان يافع تضج منه رائحة أنوثة متفجرة ، تخترق أنفه ؛ تنتفض مشاعر عبد المجيد مثل حمامات تتلجلج في شبكة صياد قد عمين عنها فوقعن فيها ، ترمقه بعينيها الناعستين فتبعثر أوراقه ؛ تشتهي أذنه حمحمتها ، تجرفه مشاعره

وأحاسيسه ؛ يتنحى إدراكه تماما ، يغادر الكرسي يتوجه حيث تجلس وعلى وجهه ابتسامة فلربما استجابت . تحرق لفافة التبغ ما بين أصبعيه ؛ ينتفض ألما . فإذا به ما زال جالسا على الكرسي في كهفه .

40- شارع الحب

بكل جهده يحاول تفادي حجارة يلقيها عليه صبية يلعبون في الشارع . رجل مشرد يجري منهم حافيا في ملابس ممزقة لا تسطيع أن تجزم بلونها الأصلي . يفترش الرصيف بجوار منزل تهدم يتخذه قاطنو الشارع مكبا لقمامتهم . تدق طبلتي أذنيه بعنف طرقات على أنابيب البوتجاز توقظ الأموات ، وبأصابع ليس حظها بأحسن من ملابسه يهرش شعره المهوش ، ويتفحص الشارع بنظرات متوجسة . يندفع نحوه التوكتوك يكاد يدهس قدميه في حين تتفجر منه أغنية مهرجانات بينما ينادي بائع الروبابكيا :

- بنشتري الكتب القديمة بأربعة جنيه الكيلو وبنشتري العيش البايت بخمسة جنيه الكيلو .. روبابكيا

تسرع إليه الصبية يحملون كتبهم المدرسية ليشتريها بالكيلو . تخترق الشارع سيارة ينبعث منها دخان أسود يصحبه صوت الشكمان المزعج ، وحمو السمكري الذي يحتل الرصيف لا يكف عن دق صاج سيارة يصلحه بينما يهرول الصبية خلف صفيحة كنز اتخذوا منها كرة يلعبون بها ، وإذ فجأة ترشق الصفيحة في مؤخرة حمو ؛ يعلو صوتهم :

- جووووون .

ينبح كلب حمادة زبادي الذي يقف على الناصية يأخذ ممن يأتيه نقودا ليعطيه لفافة صغيرة يدسها في جيبه ويمشي مسرعا يتلفت حوله . يسب حمو السمكري الصبية ؛ فيوجه له مودي أصبع الوسطى . ينطلق الصبية ضاحكين ومن حمو السمكري ساخرين . يقطع ضحكتهم صوت مزعج ينادي :

- بواقي زيت القلية الكيلو بعشرين جنيه .

تتدلى السلال من البلكونات محملة بزجاجات مملوءة ببواقي زيت الطعام المستعمل . تلتقط عينا الرجل المشرد لافتة بالية وسط الركام مكتوب عليها (حسب الله السادس عشر) ؛ يهيم في حضرة الماضي تتجمد فيه مشاعر الحنين لعبق المكان وصمت الشجن ، وفجأة تلقي أم مودي بكيس

الزبالة من البلكونة ليسقط أمام الرجل المشرد فينفجر على الأرض تتناثر منه القمامة . تزعق أم مودي صارخة على سيد البقال :

- ياعم سيد عندك صابون ؟
- الصابون خلص .

ينتفض الرجل المشرد مغادرا الشارع ، وبصوت عال يصيح :

- ناس زبالة .

41- الترام

بدا الإرهاق واضحا على أبو المكارم ؛ بيده المرتعشة يتكئ على عصاه لتعينه على المشي . تسكب الشمس ضوءها على وجهه تنفث لهيبا في حين تزحف الترام العجوز على القضبان بعد أن استباح زحام المدينة وقتها فلا هي واقفة ولا هي على قضبانها تسير . تمر من أمامه متهالكة شاحبة فيرى بداخلها بقايا أشباح أنهكها تعنت الأيام ، وما أن توقفت حتى أمسك بالعمود الصدئ الذي يتوسط بابها المحطم ليصعد درجتي الباب ، فإذا بالترام مسرعة ينبعث النسيم اللطيف في ردهة الترام ؛ يأخذه إلى لون الشوارع وطعم البيوت وسحر المدينة ، يجلجل صوت الترام ؛ يرفع أبو المكارم رأسه للكمساري فإذا به يجلس في حلة صفراء أنيقة بأزرار نحاسية لامعة يعتمر قبعة نظيفة . يمد يده للكمساري بعشرة جنيهات بلاستيكية . يمسكها الكمساري يتأملها وقد ارتسمت على قسمات وجهه علامات الدهشة .

- ما هذا يا أفندي ؟
- أريد تذكرة وهات الباقي .

الكمساري مبتسما :

- ليس عندي فكة التذكرة بمليمين .

يندهش أبو المكارم فإذا بشاب أنيق يقف خلفه يقدم للكمساري أربعة مليمات .

- تذكرتين من فضلك .

يستدير أبو المكارم له فيبتسم الشاب قائلا :

- لم غبت عن المصلحة اليوم يا أبو المكارم أفندي ؟ لعل المانع خير؟

الدهشة تخرس أبا المكارم لما في الترام من رونق وكأنها خرجت من الفابريقة لتوها . يصحبه الشاب ليجلسا فيلفت نظره نظافة الترام . الركاب جلوس بين مسن مطربش وريفي معمم وشباب حاسر الرأس بعض الفتيات في فساتين زاهية تكشف عن أذرعهن المرمرية ونسوة تغطي أجسادهن ملاءات اللف السوداء ، وأصوات هامسة تتحدث في رقي . ترتفع جلجلة صوت آلة تنبيه الترام .

- يا أبو المكارم أفندي (يناديه الشاب)

يلتفت أبو المكارم إليه مندهشا

- تصدق يا أبو المكارم أفندي رطل اللحمة اليوم في التسعيرة بثمانية عشر قرشا ! .

برأس مشوش المنطق والتفكير يسأل نفسه :

- ربما تلك مجرد أوهام وخيالات . لكن ماذا لو كان ما أنا فيه حقيقة !؟

ينظر حوله ورأسه يفور عليه ؛ ينتفض يبحث عن عصاته فلا يجدها ؛ ينطلق مثل شاب في العشرين . تقف الترام يغادرها ، وما أن وطأت قدماه الأرض فإذا بعصاته في يده يتوكأ عليها . يقف على الرصيف ينظر حوله فيجد الطريق ضائعة في تشابكها والتفافها ، والأرض مرهقة ، والأجواء صاخبة ؛ يمشي في بطء يحاول النجاة من صخب الشوارع ليبلغ حافة البحر فيستريح على شاطئه ، ولكنه لا يراه وبخطوات متعثرة يسير باحثا عنه ، وعلى وجهه ابتسامة بائسة :

- أين البحر؟ لا أشم ريحه .

تحت شجرة محطّمة يجلس أبو المكارم باكيا أحلامه التي حطمتها العواصف القوية . لا يؤلمه تقدم السن قدر ما يؤلمه قلب شاخ ، وأمنيات مستحيلة . يبصق في وجه الزمان الذي غير وجه الطفل البرئ إلى وجه شيخ بائس .

42- كف وثلاثة أصابع

برأس ضخم وشعر قصير غاب عنه كل أثر للسواد ، ووجه ذي ملامح هادئة تعكس روحا ذات حساسية مرهفة ، تسكن جسدا ضخما تحمله أرجل متعبة تستعين على أثقالها بعصا لا تفارق كفا مشربة بحمرة لرقة جلدها ، يبسط كفه اليسرى يتأمل ما خطه الزمان فيها من خطوط متشابكة تحكي سيرة مثقف متيقظ الذهن مفكر يبدو فائق الذكاء ، لكنه يعيش مغيبا في عصره لا يرى سوى زمن يصر بإلحاح أن يضمه إليه بينما يجد نفسه تنتمي إلى زمان ومكان آخرين ، تنجرف الوحدة إلى نفسه التي صارت قاربا بلا مجدافين تتقاذفه أمواجها وكأنها قدره ، لا يطمح إلا لتحقيق حريته واستقلاله النفسي في زمن بهتت ألوانه ، يلجأ إلى غياهب نفسه ينغلق عليها مع موهبته الخاصة وموسيقاه الكلاسيكية وكتبه بين أبخرة قهوته ودخان تبغه ، إحساس الوحدة يدفعه دوما إلى مقاطعة العالم برمته إلا أطيافا تخرج له من عالم كتبه يأنس بها يحدثها وتحدثه ، يعتريه الشك أحايين كثيرة عن جدوى حياته بين صفحات الكتب ، في رأسه صراع محموم يمزقه بين الانفتاح على الآخر أو الانغلاق التام على نفسه ولا يرغب أي من هذين النقيضين في مهادنة الآخر ، يود أن يجيد اللعبة فيتعلم كيف يضحك ، يحضره دائما سؤال الموت بقوة ليضع حدا للضياع الذي يشعر به في حلقة الحياة الرخوة التي تنزع أوراق الأحبة الواحد تلو الآخر ليجد واقعه أأشبه بعشبة واهنة على حافة حقل اشتدت فيه سوق الزرع واستوت ، تعتمل في داخله اضطرابات عاصفة وخيبات وآلام يعيشها في الغابة الأسمنتية ، يعاني ليصنع من نزف جرحه ابتسامة في وجه هذا العالم الذي تلاشت فيه زرقة البحر وخضرة الأشجار ، يفتش في خرائب العمر عن سويعات سعادة عاشها ؛ لعلها تضمد جراحه النازفة حسرة على عالم تبدلت فيه كل الوجوه ؛ يعرف جيدا من باعوا ، ورأى من دفعوا الثمن ، قطع في مضمار الحياة أشواطا ركض فيها بلا توقف ، و الآن أوشك أن ينهي المضمار ؛ يعتريه يأس يغلفه الصمت ؛ يقترب وجهه أكثر للحزن منه إلى السخرية ، وخلال لحظة واحدة يأتيه اليقين أن سر شقائه ليس لعيب في طبيعته وإنما لفيض مقدرته المبدعة وأن كل منجز أنجزه وكل درجة سلم ارتقاها بل كل شهرة حققها ومال جناه محض سراب يتلاشى ، وبقلم تضمه ثلاثة أصابع على كفه اليسرى يكتب (إلى عمري .. هل كل ما خطه الزمن على كفي يستحق كل هذا العناء ؟) .. يطوي كفه .

43- عم بدر

على أريكتِه في مواجهةِ حائطٍ باهتٍ ينظرُ "عم بدر " إلى إطارٍ خشبي يتدلى من زاويتِه العليا شريط أسود على صورةٍ لامرأة تنطقُ ملامحُها بالوداعةِ يشعُ من عينيها شعورُ انكسارٍ أمام زمانٍ

غلبتها أقدارُه ، مثله مثل كل البسطاءِ حلم عم بدر كثيرا أن يعيش بشراً ، تجتاح عواصفُ الزمن حياتَه المهترئةَ ، لا يؤنسُه في عزلتِه أنيسٌ أو جليسٌ بعد رحيلِ السندِ ؛ تعزفُ على جراحِه آلامًا اعتادها ، يتراقصُ واقعه على أناتِه ، و في ليلةٍ مشابهةٍ لتلك الليالي التي تصرُ على إيلامِه ، تباغتُه آلامُ الكُلى المعتادةُ ، يتحاملُ على نفسِه يستندُ على عصاه ، يعدُّ كوباً ساخناً من الأعشابِ ، التي اعتادها من يدِ زوجتِه ، تتندى عيناه الضيقتان تنسابُ منهما دمعاتٌ يمسحُها براحتِه المرتعشة متمتماً :

- الله يرحمك يا " نعمة " .

يجلسُ على أريكته ، يتفصدُ جبينُه عرقا ، ترتعدُ فرائصُه لشدةِ الألمِ ، ينظر لصورة نعمة ؛ فيذكرُ ذلك اليومَ الذي هاجمته فيه آلامُ الكُلى فاستند على زوجتِه ، وذهبا معاً إلى عيادةِ الطبيبِ ، والذي نصحه بإجراءِ جراحةٍ عاجلة لنزعِ حصواتِ الكُلى

- ونجيب منين فلوس العملية يا نعمة ؟

- نبيع كل اللي حيلتنا المهم صحتك

ينتهي عم بدر من شرابِ الأعشاب الساخنِ ؛ تهدأ الكُلى قليلاً ، وما أن ظهر النهارُ حتى تحاملَ على آلامِه ، وخرج بحثاً عن سبيلٍ لتخفيفِ آلامِه ، قابله الحاجُ " سعيد " :

- ما بك يا عم بدر ؟

- آلام الكلى يا حاج سعيد

- ألم تذهب لطبيب ؟

- عندما أصرف راتب التقاعد

- لا تحمل هما .. اليوم أصحبك لطبيب كبير

- ربنا يسترك يا حاج " سعيد "

- الناس لبعضيها يا عم بدر

عند المساءِ وبعد أن انتهى الطبيبُ من إجراءِ الفحوصاتِ وتوقيع الكشفِ الطبي :

- يبدو أنك أجريت عمليةً جراحية قبل ذلك يا عم " بدر " ؟

- نعم كان ذلك من سنوات ، طبيب ابن حلال أجرى لي عملية الحصوة .

ينظرُ الطبيبُ للحاج سعيد :

- ممكن لحظة يا حاج " سعيد "

- خير يا دكتور ؟

- لن أخفي عليك ، كليته في حالة متأخرة ، وعلاجه استئصال الكُلى

- ما تراه يا دكتور ، وأنا متكفل بكل شيء ؛ عم بدر رجل مسكين وليس له في الدنيا سوى الله وأهل الخير

الطبيبُ بحزنٍ شديدٍ

- للأسف .. مينفعش يا حاج سعيد ...

44- إشارة مرور حمراء

مع نهايات الخريف تعيث الرياح في الآفاق ؛ تلقي بأوراقها الأشجار ، تبلل دموع الغيم الطرقات في مدينته الساحلية التي كانت مثل اللوحات الفنية كلما نظر إليها تزداد جمالا في كل مرة فتحمل لوجدانه سيمفونية عشق ، على شطآن الذكريات لا يخط سوى اسمها على الرمال فتمحوه الأمواج وما بيديه حيلة ، كلما أبعدته الأسفار وجدها في أنفاسه ؛ تشعل نيران وجدانه ، وفيما كان يشق " نديم " بسيارته دروب مدينة العتيقة ؛ يفتش بين البقايا منه عنها . تائه في الشوارع والميادين . يهيم وجدانه مع طيور النورس . تمنعه جدران الحنين بلوغ طريق النسيان ، وفي أثناء العبور نحو ذاته يتسلل من نفسه إليها لتروي عينيه . من قوارير العطر الخاوية يستجدي عطر أنفاسها . تبكيه أشواقه لمدينة فاضت روحها حين فقدت ألوانها . وإذ فجأة يباغته ضوء إشارة المرور الأحمر ؛ يتوقف بينما تمر غيمة داكنة ؛ يتوارى خلفها نور السماء ، تهب الرياح تهز الأغصان بعنف ؛ تبعثر العصافير ، وفي الضوء الأحمر تغوص عيناه ، تغفو سيجارته بين شفتيه ، يمتطي ظهر الخيال ؛ أحلامه لا تسعها المسافات ، يعدو في مروج ذكرياته طفلا يلهو تحت زخات المطر ، على الكورنيش يفوح عطرها ينعش روحه ؛ فيهرول فوق غيمات الشتاء يغني على ألحان الصبا . يأتي غروب ترحل فيه الشمس ، يعقبه مساء يعانق القمر فيه السماء ، وعندما انتبه لدقات زمان شاخ ؛ يبكيها بعد أن تبدلت الأحوال ... لكن تظل هي لحنه الوحيد لم يعشق سواها .

مواء هرة مبتلة انزوت للرصيف ترتعد ؛ تنتشله من بحر الذكريات ، يلقي أرضا بكمامته الزرقاء ، يسلم ناظريه إلى السماء . ينبعث صخب آلات التنبيه ضجيجا يدق أبواب مسامعه يوقظه على صراخ :

- يا رجل .. الإشارة خضراء .

45- الجريدة

هنا في ذلك المقهى يرتاح نفسياً وجسدياً أكثر من أي مكان ، على ذلك الكرسي المنزوي في الركن الهادئ مسترخياً على جسر الحياة ، تلف أفكاره دخانه المتصاعد ، تتلقف أسماعه من الراديو ما تشتهي من أنغام عذبة بعيدا عن ضجيج التكلف الزائف ، فقط مع جريدته ، يهيم في خلوته بين أوراقها ؛ يتصفحها بشغف ربما وجد إجابات عن أسئلة تدور برأسه ، من النافذة يطل على سماء الذكريات يستنشق مع هواء بحر الإسكندرية حنينا جارفا لأيام الصبا ، ترقب عيناه البحر الذي ركب فيه سفينة الأيام ولم يخش أمواجه ، بحر رأى فيه من يسبح في خط واحد ومن يبرع في القفز مع التيارات المختلفة كدلافين مسرعة ، لا يعيب أحدا منهم ؛ فكلها أساليب للسباحة في بحر الحياة ، سباحة لا تحتاج إلى أذرع وأقدام بل مراوغة وإقدام ، ينظر لصفحة البحر فيلقي عن كاهله غباء المعيشة ، وينفض عن نفسه غبار النفاق والزيف .

في الجريدة نفس الكلام ونفس الصور لا شيء يتغير ، ولكنه مازال يصر على قراءة الجريدة يوميا ، الآن انتهى منها يرفع عينيه عنها ؛ تعود روحه الهائمة لجسده ، يطوي الجريدة تلتقط عيناه التاريخ المدون عليها . هو نفس التاريخ لا يتغير .

46- كومبارس

عبر تقاطعات طرق الحياة يمر " رضا " ما بين اللونين الأبيض والأسود لا يحمل سوى اسمه ، يسير بهدوء وروية دون صخب يعتمر القناعة على الدوام ، يأتيه أوردر جديد ؛ ينظر من النافذة يغمض عينيه يرى صورته واسمه على كل أفيش ، يقضي ليلته غارق في حلمه ، وقبل الموعد بكثير يتواجد في اللوكيشن مرتديا أفخر ما لديه من ثياب يقف منتظرا الأوامر ، يزعن لصراخهم يلتزم الصمت ،

وبين أروقة الصفحات الخالية من أي حوار تعصف بأحلامه نوة بحر ثائر فلا ينسى أنه مجرد كومبارس بين المجاميع ، تكفي إشارة أصبع صغير منهم أن تناديه ، وفوق علامة طبشور خطوها له في جمود يقف لا يتقدم ولا يتأخر، يظهر في خلفية المشهد تلون وجهه المساحيق ، يؤدي دوره بكل تفان ، بابتسامة باهتة يتمنى أن تصالح الكاميرا وجهه ليتحقق حلم كم بات الليالي يسبح فيه ، حلمه كبير لكن تعجز بصماته أن تلون صفحات حياته ، ينهي دوره الفارغ من الحوار بكل إتقان ، ينتهي تصوير المشهد ؛ يرد إليهم ملابس الدور ، ويمسح من على وجهه المساحيق ، وقبل موعد العرض أمام باب السينما يقف مرتديا أفخم ما لديه من ثياب ، يتنقل بين رواد السينما يلقي بوجهه في عيونهم ربما انتبهوا لوجوده ، يرفع عينيه ينظر إلى الأفيش يبحث عن صورته أو اسمه ..

كالعادة غير موجود .

مبتسما ينطلق صوب البحر لا تكاد قدماه تلامس الأرض تحلق روحه تعانق قوس قزح ، وبخفة عصفور يرقص فوق الغيمات .

47- النسر الأزرق

بينما يصدح قيثارة السماء بآي الذكر الحكيم ، والنفيسة من وراء حجاب تتلو وردها اليومي ، يجلس شوقي وحقي مع طه بجوار العز في حوش الشافعي ينصتون ، فإذا بنسر أزرق يحط فوق الجدران يضع عليها نقطة سوداء ؛ تنتفض الجدران فزعا ، فإذا بالعميد وقد سقطت نظارته السوداء في دهشة يتخبط فينادي ولا مجيب ، يتبعه حقي متكئا على عصاه يطرق بها أبواب الأحواش ، حول الشافعي في الحوش كلهم يتجمعون ، تعلو الجلبة ويزداد الصياح ترتعد منه حجارة الجدران ، نظرت بعيني فرأيت الفناء عبر قبضة حديدية باردة تنهال فوقي فتطيح جدراني أرضا ، ارتعدت فرائصي مخافة أن تنهال عليهم أحجاري فتتبعثر رفاة من في الحوش تحت أقدامهم العمياء ، تجمدت أوصالي و تألمت بشدة عندما انهارت أحجاري تنزف حسرة ، وذرفت عينها الدمع السخين لفنائي . وضعت على عيني نظارة طه كي لا أرى هواني ، استسلمت للموت والفناء ، وهمست لمدينتي بآهات الشوق في غسق الليل فبكت لفراقي ، تسرب ضباب العمر في مدينتي كما يتسرب الدخان من أفران فواخير الفسطاط ، وبعين تندت سألت مدينتي :

- أحقا ملت العين النظر إلينا بعد أن علانا غبار السنين ؟ هل طالت بنا رحلة العمر، وضقتي بنا كما ضاقت شوارعك بقاطنيها ؟ قدرك يا مدينتي أن تفارقيني بقسوة . لكن مهما تفتحت على وجنتيك الزهور بحثا عني فلن تجديني .

حول الشافعي تجمعوا وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم :

- هل من أمل ينير عتمة الوجدان ، ويبدد ضباب الأحزان ؟ غابت الشمس وحلت الغيوم فاختفت النجوم ؛ لتزداد العتمة ، وتتعثر الأقدام العمياء في الرفاة .

في رحلهم يتقدمهم الشافعي تصحبهم تلاوة قيثارة السماء " فَأْوُۥٓاْ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا " .

شوقي باكيا ينادي من النيل إلى الفرات يسمعه في مرقده أبو العلاء يتساءل :

- أبكت تلكم الحمامة أم

غنت على فرع غصنها المياد ؟!

بدموع الحسرة يجيب شوقي :

- هل ترى كالتراب أحسن عدلا

وقياما على حقوق العباد؟!

تعود الجرافات تدوس الأرض بإطاراتها الضخمة السوداء ؛ فتطأ الأقدام الباطشة رفاة من رقدوا تحت التراب ، يزعق أبو العلاء من الفرات صارخا :

- خفف الوطء ما أظن أديم

الأرض إلا من هذه الأجساد .

يعلو النسر الأزرق وبلا اكتراث يحط فيضع نقاطه القاتمة ؛ يهرولون خلفها ليرسموا حولها دائرة سوداء ، تتعالى الصيحات ، ترتفع لها القبضة الحديدية الباردة تنهال فوق جدران كتب عليها (طالع إزالة) فتنجرف حجارتها إلى الهاوية بغير أناة .

48- النمرة غلط

ذات مساء يشبه تلك الأماسي التي مرت عليه ، يظل " عزيز " راقدا في فراشه ينهل من عذب ينبوع الذكريات كلما ازداد عطشا في لياليه الجدباء لترد للروح عافيتها ، ينظر إلى ساعة الحائط التي توقفت عقاربها عن الدوران ولا يستطيع إصلاحها منذ اعتزل مهنته وأغلق ورشته لتصليح الساعات ، من عادة عزيز في ليالي الشتاء ألا يتحرك من مرقده يحتضن قطته الأليفة تؤنسه في وحدته ؛ لا يجد عزيز مكانا في قلب يذهب إليه أو حضنا يفرغ فيه آلام الفقد ، يطيل النظر للهاتف الأصم الأبكم ، تتوق روحه لعطر شجرة الياسمين ؛ يضئ مصباحا صغيرا بجوار سريره اعتاد طيلة خمس سنوات على إضاءته بنفسه منذ ماتت " أولجا " وماتت معها ماكينة السينجر السوداء التي طالما خاطت بها لجاراتها ملابسهن المنزلية البسيطة ، تعانق أصابعه فنجان قهوته لأبخرتها يبوح بآلامه ، يعشق عزيز المساء والمطر يمضي وقته في الليل وحيدا يفتقد دفء ابتسامة أولجا ؛ ينأى بروحه عن صخب الحياة التي أنفق فيها سنوات عمره بغير حساب ، تحدثه روحه حديثها الهامس المعتاد :

- تسأل نفسك أين غابت أحلامي؟

يهوم برأسه متمتماً :

- ما أسرع خُطى الزمن !

تعيد نفسه ذات السؤال :

- فيم أنفقت عمري ؟ وهل كنت أعي سر الحياة ؟

تجيبها الروح بصوت متهدج يخالطه الحزن :

- صارت الحياة فاترة وانقضت سنوات العمر لتعقبها الشيخوخة البائسة فتتساقط معها الأحلام كعصف شجر اصفرَّ في خريف أرعن .

تهفو نفسه إلى شجرة الياسمين التي شاركته أولجا زراعتها أمام البيت أول زواجهما ، وفي هذا الليل الساكن يهز كيانه صوت انهيار مروع لجسور تعبر عليها قطارات ذكرياته ، يمزق أحشاءه اغتيالهم لشجرة الياسمين المزهرة لرصف الشارع . فجأة يشق السكون رنين الهاتف ؛ تقفز القطة فزعاً فيسقط من يده فنجان القهوة .

مندهشا يسأل فيأتيه الجواب :

- النمرة غلط .

---

49 - قطار القدس الأخير

جاءه الموعد السنوي المعتاد فالورقة تحمل ذات الرقم السنوي مع اختلاف السنة فاليوم الرابع عشر من مايو، يتكئ " عدنان " على وحدته شاردا في لا أحد ، على كتفه الحطة الفلسطينية في إحدى يديه العقال ، يسير بخياله على جانب سكة حديد ممتدة على قضبان شامخة تتحدى الزمن لتقول للجميع :

- كنا هنا ذات يوم أصحاب للحياة والحضارة ولا أحد يستطيع إنكار ذلك مهما مر الزمن .

تلك القضبان الصدئة شهدت الرحلة الأخيرة لقطار القدس يوم حملته أمه من خاصرته ورفعته عن أرض رصيف المحطة ليقبل أباه الواقف في نافذة القطار مودعا ، يتشبث عدنان بكفه الرقيقة بحطة أبيه لا يتركها ، يتحرك القطار فينزع الحطة يسقط على الرصيف العقال ويمضي القطار، تحتفظ الأم بالحطة والعقال حتى عودة الزوج في ذات القطار بعد أن ينهي بعض أعمال مع أخوته في حيفا . يزعج الصغير صرير المكابح وصفير القطار وأعمدة الدخان المتصاعدة برائحة المازوت ، يتابع أباه الذي يلوح لهما من نافذة القطار بمنديله ؛ يبكي الصغير على غير عادته ، تهاجم عصابات الهاغانة القطار في طريق مرج بني عامر ويحترق القطار بمن فيه من عرب ، ويتوقف خط سكة حديد القدس في ذات العام ولا يعود لمصر ، في ذلك اليوم وقف الغاصب مبتسما في يده بندقية وصاحب الحق مقيدا بسلاسل حديدية ، تتوقف السكة الحديد ، ينزلون الساعة الكبيرة ذات العقارب المعدنية المعلقة على واجهة محطة القدس بعد أن رنت رنينها الأخير مثل صوت قرع أجراس كنيسة القيامة في بيت لحم ، يحترق لها المسجد الأقصى حزنا . صار الصغير شيخا في راحتيه حطة أبيه يضعها على وجهه يشم ريح أبيه فترتد له ذاكرة لا تضيع . يطوف في مسامعه صوت أمه التي عاشت تحدثه عن بحيرة طبرية وزهور شقائق النعمان التي تملأ الأودية وخرير الجداول في المزارع ورائحة أزهار الليمون وأشجار الزيتون وتغريد الحمام ونور الشمس المشرقة من النهر إلى البحر . لا يغادر باله نكبة الأرض . يجري لسانه بكلمات أمل

- إنه ليس ثأرك وحدك
- لكنه ثأر جيلٍ فجيل

- وغدًا ..
- سوف يولد مَن يلبس الدرع كاملةً
- يوقد النار شاملةً
- يطلب الثأرَ
- يستولد الحقَّ
- مِن أَضْلُع المستحيل .

وفجأة إذا بالشيخ عدنان وكأن الزمان عاد به للوراء أو كأنه بقطار القدس رجع يسير على قضبان عادت لامعة كالفضة ، يقف أبوه في نافذة القطار وعلى رأسه الحطة والعقال ، فما عاد يزعج عدنان صرير مكابحه الحديدية أو صفيره العالي ، يشم في أدخنته المتصاعدة رائحة أزهار الليمون وأشجار الزيتون ، يعود عدنان طفلا وبكل ما أوتي من قوة يرفع ذراعه بالحطة ملوحا بها لأبيه صارخا :

- لن أصالح .

50- أشجار الزيتون

فوق الأرض تئن أشجار الزيتون الظمأى بينما الماء في العلا يرتعد خوفا يتشبث بالغيوم يجبن أن يصير مطرا ؛ فلا تزهر أشجار الليمون ، تحترق أشجار الزيتون تبكيها عيون سنابل خضر ، تخرج جرذان من أوكارها تهدم أعشاش الطيور ، يمتطي الفارس " يوسف " صهوة جواده ، مرتديا دروعه الحديدية لا لتحميه من ضربات السيوف وطعنات الرماح لكن لترهب أعداءه وتقذف في قلوبهم الرعب ، أقفال صدئة على قلوب غلف ، رايات عار بيض يخضبها دم الطيور ، ترفع الرايات البيض أياد مرتعشة بألسنة شجب عبثية ، وميض تحت الأنقاض تتقد جذوته ثائرا يرفض أن تدنس أرضه الجرذان ، ومدينة الزيتون جاثية على ركبتيها ينحرون صغارها تنتظر دورها في الذبح صابرة أمام ضمير مترهل يغط في نوم عميق ؛ يبحث يوسف عن أعشاش الطيور وسط نيران غاشمة أحرقت أشجار الزيتون وأزهار الليمون . يتحسس يوسف نورا بعد أن انطفأت في السماء النجوم ، يمضي في ساحات الشرف يحارب وحيدا لا تهزمه جيوش ولا تقتله طعنات بل تصرعه آلام خذلان تخفيها دروع تحتها يتمزق جلده ، يخفي آلام جسده المثقل بالأوجاع بينما هو على ظهر جواده صابر رافع الرأس يبعث مظهره على القسوة وبث الرهبة في حين يتآكل جلده داخل

الدرع الحديدي ينزف جرحه لا يعلم به إلا الله ، تركوه وحده في الجب وكتبوه غائبا عن جمعهم ، تفوح من أفواههم رائحة العفن ، الجسد يتآكل تحت حديد الدروع لكنها حياة الفرسان يمضون إلى الحروب إلى أن يسقطوا فجأة في ساحات الشرف والعزة لا بطعنة رمح يسقطون وإنما بذلك العفن الذي يزحف على العقول ، يتمنى يوسف أن يحتضن ماء المطر أرضه فتزهر أشجار الليمون وتحيا أشجار الزيتون يود أن يقبل ضوء القمر صفحة البحر فيتدفق ماء النهر المقدس إلى بحيرة طبرية لترفع راية الكويتزال رأسها إلى عنان السماء ، يحلم يوسف أن يتحرك الحرف الساكن فتعزف اللغة جملا للسلام . بالقرب من شجرة الزيتون المحترقة وجدوا جثته تحت الأنقاض مثل رسالة مطوية في زجاجة أغلق فمها بالفلين لفظتها أمواج البحر لا يستطيع أحد أن يدين من ألقاها . وصفته دموع عيون محترقة :

- أبيض حلو شعره كيرلي

لم يتعرف على أشلائه أحد ، من الذي فصل رأسه عن جسده ؟ وماذا فعل ليستحق كل ذلك ؟ تسقي دماؤه الأرض لتزهر أشجار الليمون وتنبت من جديد أشجار الزيتون

51- على فكرة

ما زلت أنتظرها ولم تأت بعد ، ليل يلقي سكونه يلف أفكاري ، ألقيت بجسدي المتهاوي إلى فراشي ، يداعبني النوم ، يرتديني الدفء ، تتثاقل أجفاني ، تمد يديها لي ، تداعب خصلات شعرها وجنتيها ، تتهادى في ثوبها الشفاف الفضفاض ، فيتراءى لي جسدها المرمري المتفجر بالحيوية ، فتداعبني :

- هيا انهض ، فأنا الليلة مفعمة بالطاقة

- لكن جسدي مثقل الليلة ، خائر الهمة

- إن لم تنهض .. فلن تجدني أبدا

متثائبا وقد تملكني النوم :

- لندع الأمر للغد

يمتقع لونها ، يتمزق ثوبها ، يتطاير شعرها ، يخفت صوتها تبعد ، يبتلعها ضباب ؛ تختفي ، فلا أبالي ، أعانق النوم بشوق ، تشرق شمس نهار وضاء المحيا ، أجلس إلى مكتبي ؛ أعبث في أوراقي ، أبحث عنها دون جدوى . يضعون فنجان قهوتي أمامي يسألون :

- علام تحزن ؟!

بزفرة حارة وصوت هامس :

- على فكرة .

(دراسة نقدية للأستاذ سمير الفيل لقصة إنهم يزرعون الكراسي)

تلوح في افق السرد فكرة الاحتمال والظن والشك ، حيث لا توجد حقائق حاسمة في دائرة القص الحديث ، فكل الشروط الفنية مهيأة للتعامل مع المادة الخام للبنية القصصية برحابة واريحية.

ويعد عنصر " الكاريكاتير" أي اللعب في النسب إحدى أدوات فنان الكاريكاتير ، الذي يعمل على تقديم صورة مقربة للمواقف الإنسانية مع تعديل النسب لتوضيح كم الأخطار التي يتعرض لها مجتمع ، نخر السوس أسسه ، فأصبح في حالة خطر داهم ، وسقوط مريع .

في قصة "إنهم يزرعون الكراسي " للكاتب سمير لوبه اقتراب من هذا النسق الجمالي ، والفن القصصي الكاريكاتيري ، فالبداية تكون مدخلا للمعرفة حول القرية ونسقها ، ناسها ، مشاكلها الاجتماعية ، واطماع المتنفذين من ابنائها ، وهكذا.

تبدأ ضربة البداية بشكل جميل حيث تحديد صارم للمكان ، مع الترميز بمشهد حجا راكبا حماره بالمقلوب وهي لقطة منتزعة من التراث الشعبي لعموم المصريين : " مجرد اسم في البيت الطيني داخل الحارة الكسيحة في تلك القرية العرجاء التي لا تعدو كونها خطا في خريطة متهالكة ، يدخلها مرة في اليوم قطار مخمور يتسكع على خط السكة الحديدية ، وبصوت بح ينادي عليهم ربما يغامر أحدهم ويركبه لكن الكبار هنا تعلموا ألا يجادلوا البحر في موجه ، فهم يفضلون السير حفاة وفي أفضل الأحوال يركبون الدواب ؛ فالمسافات عندهم مثل أيديهم قصيرة " .

يستمر الحوار بين حجا وبين عدد من الصغار ، ويأتي حكيم ليفترش أرض الجرن ، يمسك بقايا طبشور بأصابعه ، ليكتب تلك الحكمة الشعبية المعبرة عن أحوال الناس ومسلكهم الاجتماعي : " في البلد التي تعبد عجلا حش البرسيم واعط له " .

ينصحهم أن يتفهموا درسهم الأول ، ثم يمسك أصيصا يعلمهم كيف يرعون شتلاتهم الصغيرة حتى تصير شجرة تمتد جذورها في الأرض فلا تقتلعها عواصف الأيام ورياح الصدف.

يحتاج مثل هذا الدرس إلى وعي وفهم ويقظة ، وحين يكبر واحد من الصغار ينوي ركوب القطار ، ويسارع بالجلوس على مقعد شاغر به ، على رصيف المحطة يندس بين جموع المسافرين ، يخترق الزحام في محطة العاصمة ، يمنعهم رجل المرور من العبور بوضعه حاجز في طريقهم كي يصعدوا الكوبري المعدني مرغمين. يبتسم لرجل المرور في خنوع فيسمح له بالمرور وأمام المباني الشاهقة تتلاحم الأجساد بين صعود وهبوط، فيتمكن من الوصول إلى السلم قبل الجميع، وعند مدخل باب الإدارة يحتضن إحدى الشتلات يسقيها دروسه الخمسة التي ضمها لتكون عقدًا في أوسطه صورةٌ لحمارٍ مربوطٍ .

لقد صارت الشتلة شجرة ذات جذور ممتدة إلى الأعماق ، تنمو وتصير شجرة تقوى وتمتد جذورها يوما بعد يوم .

ذات يوم وقف ساعي المكتب يلمع لوحا نحاسيا مثبتا بالمسامير على الباب الكبير ، والموظف الأنيق يحمل الملفات يمنعه ساعي المكتب من الدخول .

تمضي السنوات سريعا ، " وفي السيارة السوداء الفارهة يعود لقريته التي اختفى منها القطار المخمور واندثرت معه السكة الحديدية والبيوت الطينية وتعالت الأبنية واصطفت السيارات واختفت الدواب و في الطرقات على الأسفلت نساء يرتدين البنطلونات يمشين بشعورهن السارحة دون قيود ، وفي المساء يصحبونه للاجتماع بالشباب في القاعة المكيفة وسط القرية ، يجلس على الكرسي يتوسط المنصة تترقبه العيون

- اليوم أعلمكم كيف ترعون شتلاتكم ".

هذه دروس النفاق ومغالبة الزحام ، واقتناص الفرص حتى يتمكن " القروي " من الوصول إلى هدفه الذي لم يكن يتصور ان يصل إليه ، وبالتأكيد هي صورة ساخرة لكن لها ظل من الواقع، وعلى الأرجح فإن الكاتب حاول من خلال هذا الطرح الذكي ، بصبغته الساخرة أن ينبه الناس إلى أخطار نماذج مشوهة ، وهي شائعة في حياتنا.

والرمز الذي استخدمه حيث يظهر جحا في صورة كوميدية تعمق من المعنى فها نحن نرى " جحا" يصل إلى الوليمة في ثياب رثة ، فيطرده الخدم، يختفي ليعود بثياب فاخرة أعطاها له أحد الامراء

فيسمحون له بالدخول، وهي من طرائف هذا الرجل . عند المائدة يغمس كمه في الصحن وهو يقول له بنبرة مريرة ، مشحونة باللوم والعتاب : "كل يا كمي، فلولاك ما وصلت إلى هذا الطعام ".

لعل هذا النص يقدم لنا نموذجا من الادب الساخر ، فهو يطرح الدروس الخمسة المستفادة من مشواره، والحقيقة ان فلسفة ما تطل من بين السطور ، واستدعاء مناطق من التراث الشعبي أضفت على النص خفة ورشاقة ومرح ، رغم أن الخطاب العام هو تعرية الفساد وكشف العثرات في مجتمع ما زال يرسف في أحواله القديمة ، وأمراضه المزمنة حيث غياب المعنى ، وموت الضمير، والاهتمام بالعرض دون الجوهر.

سمير لوبه يقدم نصا جميلا فيه مساحة للكوميديا والكاريكاتور الذي يدفعنا للتساؤل عن مستقبل البلاد والعباد دون أن نقع في " فخ " الإحباط ؟!

الفهرس

م	عنوان القصة	الصفحة
1	صلاة العيد	
2	على الهامش	
3	بلية	
4	الجندي الأخير في جيش سقنن رع	
5	رسائل البحار السبعة	
6	الدنيا على جناح سلامة	
7	أمطار في يونيه	
8	الأراجوز	
9	على رأس الساعة	
10	من الشمس للظل	
11	مقامة الشاب النحيف	
12	نمل وخياشيم	
13	وقيدت ضد مجهول	
14	الطير المهاجر	
15	أبيض وأسود	

16	طائر الكويتزال	
17	ديوك تبيض	
18	اللبن الصابح	
19	إنهم يزرعون الكراسي	
20	برج الثور	
21	المريلة	
22	البرابرة في المدينة	
23	باب البحر	
24	قدورة أبو العيال	
25	عندما يأتي المساء	
26	يوم قابلت نجلاء فتحي	
27	حديث المدينة	
28	فرسان ودروع	
29	لقاء	
30	مجرد مشهد	
31	أسير الحرف	
32	ترياق الشهر	
33	سليم وعبد العليم	
34	مسك وبصل	
35	أوركسترا	
36	أوبرا حمزة	
37	البالونة	
38	عين الرسام	
39	الكهف	
40	شارع الحب	
41	الترام	
42	كف وثلاثة أصابع	
43	عم بدر	
44	إشارة مرور حمراء	

45	الجريدة	
46	كومبارس	
47	النسر الأزرق	
48	النمرة غلط	
49	قطار القدس الأخير	
50	أشجار الزيتون	
51	على فكرة	

المؤلف :

سمير لوبه

من مواليد الإسكندرية 1970

تخرج في كلية الآداب جامعة الإسكندرية 1992

صدر له :

- كواليس مجموعة قصصية
- البحر بيضحك ليه مجموعة قصصية
- إحساس مجموعة قصص قصيرة جدا
- المتاحة مجموعة قصصية
- قراءات . إبحار في قراءات نقدية
- رواية الوعد والمقسوم
- رواية الغربي
- الجندي الأخير في جيش سقنن رع مجموعة قصصية

Smyrlwbh@gmail.com

01226119162 سمير لوبه - مصر